

لن تسرقوا منا رمضان

محمد علي يوسف

مسلسلات رمضان

حسام عبد العزيز

نقد التقريب

بين الإسلام والليبرالية

حسين عبد الرازق

من اللعن إلى الخلاص

نظرة على تطور موقف الكنيسة من خلاص الملحدين

هيثم سمير

ورقات في الإفتاء والوفاق والخلاف والترخص

عمرو بسيوني

الفلسفة

أحمد سالم



المدونة: http://alhorras.wordpress.com

فيس بوك: facebook.com/AlHorras

تويتـــــــر: twitter.com/ALHorras

البريدالإليكتروني: horras.sh@gmail.com



الحمد لله وحده ..

لا يمكنك أن ترد واقع التجريف الثقافي وضحالة الوعي المنتشرة بين المسلمين اليوم إلى عامل واحد.
الظروف السياسية والاقتصادية، ومناهج التعليم، والأمية التربوية، وخنق الاستبداد للمجتمع ومحاصرته له=كل تلك العوامل وغيرها ساهمت في هذه النتيجة المحزنة والخطيرة في الوقت نفسه.

وساهمت الثورة المصرية والمتغيرات الاجتماعية والسياسية بعدها في زيادة واقع التجريف، وذلك بسبب التداعي المجتمعي تحت وطأة الحروب السياسية التي عاشها الناس خلال العامين الماضيين، خاصة مع انشغال كبرى الحركات الاجتماعية الإسلامية وغير الإسلامية في أتون السياسة الملتهب.

فسيلة المؤمن، الأشياء الصغيرة الفعالة، اجتماع النقط، طلب الفتح بطول الطَرْق، كل تلك المعاني هي ما يفتح للناس أفق الإصلاح رغم ضعف ما بين أيديهم من الإمكانات، وهي في الوقت نفسه ما يقطع عليهم باب العذر؛ إذ لا قعود حينئذ إلا من كسل وعجز.

بين صفحات هذه المجلة ستقابلك مجموعة من الأقلام تكسر الحدود ولا تعرف غير الإسلام رابطة تجتمع عليها؛ لتشترك في هم أساسي واحد هو محور اجتماعهم بقطع النظر عن مواطن اتفاقهم واختلافهم الأخرى؛ إنه هم الثقافة والوعي، وسبل إعادة إخصاب هذه الأرض المجرفة، واستثمار ما فيها من بقايا البذور ومكاثرتها، وتعاهدها بالسهر والري، وقتل ما قد يعرض لها من الآفات التي تريد اغتيالها قبل أن تؤتي أكُلها.

لم تجتمع هذه النخبة لتحملك على موافقتها الرأي، وإنما لتحرضك على تجويد صناعة الرأي.
لم تجتمع هذه النخبة لتصنع منك نسخة منها بل لعلها لا ترجو شيئًا كرجائها أن تكون نسيج وحدك.
لم تجتمع هذه النخبة لتلقنك أفكارها، وإنما لتقيم لك أمثلة في طرائق إقامة الأفكار؛ لتقيم أنت صروح أفكارك.

الدين والوحي والفقه والوعظ والأدب والسياسة والفلسفة والاجتماع والتاريخ وكل ما له صلة بتجويد صناعة التفكر ستجدونه بين جنبات هذه المجلة، تعاملوا معه على أنه بذور منثورة، وتابعوا معنا ومع غيرنا ومع أنفسكم مثنى وفرادى، وارتقبوا وقت حصاد ثمار أنفسكم بعد هذا البذر الطويل، وآتوا حقه يوم حصاده، واشكروا لله واعبدوه.

وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هيئة التحرير



مسلسلات رمضان: ذنوبك عندنا واسأل رمضان اللي فات

حسام عبد العزيز

"فنانات: رمضان بوابة النجومية".

تحقيقٌ نشرته صحيفة "القبس" الكويتية، وصرّحت فيه ممثلات مصريات بأن كل فنان في مصر يدين بالفضل لشهر رمضان في نجوميته وشهرته، تحقيقٌ يؤكد أن الممثلات المصريات لا زلن يراهنَّ على ضعف إرادة شعب مسلم قيل إنه متدين بطبعه، تمامًا كما راهن أحد المنتجين منذ سنوات على الشعب نفسه وافتتح قناة تبث إرسالها خلال شهر رمضان وتحتجب بعده.

مسلسل "الداعية" هو أكثر المسلسلات التي أثارت جدلًا، إلى حد تحريك دعوى قضائية لمنع عرض المسلسل. وتدور أحداث المسلسل حول داعية يقع في غرام عازفة (كمان) متبرجة، ليحاول المسلسل تدريجيًّا إقناعك بجواز الموسيقى والغناء، ويسرب إليك أفكارًا خبيثة من خلال اللقاءات بين الداعية والعازفة، وفي الخلفية من المشهد العاطفي أحداث سياسية تستهدف اتهام "الإخوان" بالعنف.

ويقول المخرج الإخواني عز الدين دويدار إن المسلسل يستهدف بشكل مباشر الدعاية السوداء ضد الإخوان والرئيس قبل انتخابات البرلمان القادمة، ويدعم الانقلاب ضد الرئيس، ويتعمد إظهار الإخوان كجماعة إرهابية لها ميليشيات تورطت في قتل الثوار واغتيالهم، وينسب لهم غالبية حوادث القتل والعنف في الفترة الانتقالية. ويُظهر هاني سلامة الشاب الإخوانى الذي تتناقض أقواله وأفعاله، يُحرّم الموسيقى ويذهب لسماع محبوبته في الأوبرا، وكذلك نوع علاقته بالقيادات في الجماعة، ويُظهر المعارضة والحركات اليسارية في دور البطل الضحية، الذي يعاني من بطش "الإخوان" والرئيس دفاعًا عن الثورة والفقراء.

ويضيف دويدار: المسلسل يصل لأحداث الاتحادية، و يجسد شباب الإخوان و هم يذبحون الشباب على أسوار القصر ويقتلون منهم 10 شبان، كما يجسد حوادث اغتيال يدعي صانعو المسلسل أن الإخوان نفذوها ضد شباب الثورة واليسار والمعارضة.

وإذا كان "الداعية" هو الأكثر جدلًا، فمسلسل "مزاج الخير" هو الأكثر فجورًا، بما يحويه من جرعة زائدة من الرقص العاري والخمر والمخدِّرات والألفاظ الخارجة، إلى حد ظهور إحدى الممثلات ببدلة رقص على غير المعتاد في المسلسلات بخلاف الأفلام، وهو ما دفع البعض إلى تحريك دعوى قضائية لإيقاف عرض المسلسل، واضطرت الصفحة الرسمية للمسلسل على "فيس بوك" إلى نشر (تريلر) جديد للمسلسل خال من مشاهد الرقص والغناء.

وحول شرب الخمر، يؤكد الممثل محمد نجاتي أن الخمر المعروض في المسلسل هو مياه غازية، قائلًا: "أتمنى أن يذهبوا ويمنعوا الخمر الحقيقي بدلًا من أن يشغلوا بالهم بمنعها من المسلسل"!

الرقص حصري على التليفزيون المصري، و"مزاج الخير" ليس الوحيد؛ فمسلسلا "مولد وصاحبه غايب" و"دنيا آسيا" (الذي تلعب فيه الممثلة منى زكي دور راقصة) يواجهان دعوى قضائية للسبب نفسه.كذا تلعب الراقصة دينا في مسلسل "أهل الهوى" دور الراقصة، لكنها تطمئن الجماهير المسلمة بأن طبيعة بِدل الرقص التي ترتديها في المسلسل تناسب المشاهدين الذين يتابعونه في منازلهم، وهو أمر اعتادت عليه في الأعمال الدرامية، باعتبار أن جمهور التلفزيون يختلف عن جمهور السينما، ما يتطلب نوعيات من الملابس مغايرة.

أما مسلسل "العراف" الذي يلعب بطولته عادل إمام فهو محاولة جديدة لتشويه التيار الإسلامي ولكن في الصعيد هذه المرة. وبالطبع لا يفوت الممثل الشهير وابنه مخرج العمل تصوير أبناء التيار الإسلامي كأناس يتاجرون بالدين ويستخدمونه لمصالحهم الشخصية.

وللعام الثاني على التوالي، يجري الترويج للصوفية في مسلسل "موجة حارة"، من خلال شخصية امرأة متصوفة تستطيع احتواء عائلتها من حالة الضياع التي تعيشها.

ولا يبدي الفنان رشوان توفيق حزنه من المسلسلات التي تعج بهذا الفجور، وإنما لغياب المسلسلات الدينية، وعدم الاهتمام بها، محملًا الدولة المسؤولية عن ذلك، لأنها ليست مهتمة بهذه النوعية من المسلسلات، لأنه لا يوجد منتج يستطيع أن يتحمل تكلفة مسلسل ديني.

ويأتي رد الإسلاميين على هذه المحاولات لتدمير الدين والأخلاق واهنًا، ويواصلون إغفالهم لدور الإعلام في تشكيل الوعي؛ اللَّهُمَّ إلا الحملة التي دشنها د. حسام أبو البخاري بعنوان: "لا تسرقوا منا رمضان"، والتي تنوي النزول إلى شوارع مصر، وغزو مواقع التواصل الاجتماعي ببوسترات ولافتات ترغِّب في استثمار الشهر الفضيل، ومقاطعة هذه المسلسلات الماجنة، التي باتت قوة ناعمة لتشكيل الوعي سلبًا.

إن الأسلوب الذي يصر عليه الداعية الشاب يعرِّض الناس للفتنة في دينهم؛ فكيف يتقبل المسلمون بعد هذا البرنامج أمر النبي بإجلاء اليهود عن المدينة، وقوله: "لا يُترك في جزيرة العرب دينان"، وإجلاء عمر بن الخطاب مشركي الجزيرة انصياعًا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

وعلى الرغم من محاولات الرئيس المخزية لطمأنة الفنانين والفنانات، لا يزال انزعاج الفنانين من "سيطرة الإخوان" باديًا، رغم هذا الكم من المسلسلات التي وافقت عليه الرقابة. انزعاج من مجرد رفع دعاوى قضائية لمنع عرض هذه المسلسلات!

تقول سهير البابلي: "إن الدعاوى القضائية المرفوعة ليس لها أي قيمة أو تأثير، والجانب الإيجابي فيها أنها تزيد من كراهية الناس للإسلاميين، وإن الفن الهادف قادر على الوقوف أمام الإخوان، ولن يتمكنوا من التأثير عليه، وسنستمر في تقديم رسالتنا مهما كانت الضغوط".

ويعلق الناقد السينمائي رفيق الصبان على هذه الدعاوى بقوله: "إن اللجنة الدينية ليس لها علاقة بالفن، فالحكم يكون من منظور فني وليس دينيًّا".



وعليه يمكن القول إن التيار العلماني لا زال يحتفظ بالإعلام كبندقيته التي يفضل الحسم بها، والتي يصوب بها تجاه أي هدف حي، ولو كان الجارَ الطيب المتدين، وأيَّ قيمة كبرى حتى لو كان التاريخ، وأي هدف عظيم، حتى لو كان شهر رمضان نفسه.

إن الأسلوب الذي يصر عليه الداعية الشاب يعرِّض الناس للفتنة في دينهم؛ فكيف يتقبل المسلمون بعد هذا البرنامج أمر النبي بإجلاء اليهود عن المدينة، وقوله: "لا يُترك في جزيرة العرب دينان"، وإجلاء عمر بن الخطاب مشركي الجزيرة انصياعًا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

وعلى الرغم من محاولات الرئيس المخزية لطمأنة الفنانين والفنانات، لا يزال انزعاج الفنانين من "سيطرة الإخوان" باديًا، رغم هذا الكم من المسلسلات التي وافقت عليه الرقابة. انزعاج من مجرد رفع دعاوى قضائية لمنع عرض هذه المسلسلات!

تقول سهير البابلي: "إن الدعاوى القضائية المرفوعة ليس لها أي قيمة أو تأثير، والجانب الإيجابي فيها أنها تزيد من كراهية الناس للإسلاميين، وإن الفن الهادف قادر على الوقوف أمام الإخوان، ولن يتمكنوا من التأثير عليه، وسنستمر في تقديم رسالتنا مهما كانت الضغوط".

ويعلق الناقد السينمائي رفيق الصبان على هذه الدعاوى بقوله: "إن اللجنة الدينية ليس لها علاقة بالفن، فالحكم يكون من منظور فني وليس دينيًّا".



وعليه يمكن القول إن التيار العلماني لازال يحتفظ بالإعلام كبندقيته التي يفضل الحسم بها، والتي يصوب بها تجاه أي هدف حي، ولو كان الجارَ الطيب المتدين، وأيَّ قيمة كبرى حتى لو كان التاريخ، وأي هدف عظيم، حتى لو كان شهر رمضان نفسه.



إيضاح قول الجويني في مسألة عدد أهل الاختيار في عقد الإمامة

محمد براء ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

من الاعتراضات العصريَّةِ الشهيرة على التراث الفقهي والكلامي في باب الإمامة: عدم إعطائه مسألة الشورى حقها من تأصيل القواعد وبيان الآليات التي تتيح تفعيل الشورى في نظام الحكم.

ويقولون: إن تراث المسلمين في باب الإمامة يُنظِّر للاستبداد.

وفي هذا السياق: يضرب هؤلاء المعترضون قول إمام الحرمين أبي المعالي الجويني رحمه الله تعالى في الاكتفاء برجل واحد في عقد الإمامة، يضربونه مثالًا على تكريس التراث الفقهي للاستبداد وسلب الأمة حقها في اختيار من يحكمها، وربما يعرضونه في قالب من التهكم والسخرية، حتى يخيل للناظر أن الاستهتار والحمق قد وصل بالجويني غايته عندما قال قوله هذا!!

فما حقيقة قول الجويني؟ وما أصله؟

من المعلوم لدى الدارسين لكتب الاعتقاد أن باب الإمامة هو أحد الأبواب الأصليَّة فيها، إذ لما كان مقصود علم الاعتقاد تقرير العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه، وكان لطوائف المبتدعة من الخوارج والشيعة مخالفات في هذه المسألة، احتاج العلماء أن يفردوا بابًا لتحقيق ذلك المقصود في هذه المسألة.

وقد صنف إمام الحرمين كتاب النظامي (العقيدة النظامية) وضمنه أبواب الاعتقاد عدا باب الإمامة، ثم أتبعه بكتاب الغياثي (غياثُ الأمم في التِيَاث الظُّلَم) وجعله خاصًّا بباب الإمامة، وبحث فيه بعض المسائل الجديدة التي احتيج إليها في وقته، مثل مسألة الوظائف السلطانية المرصودة للجهاد، وشغور الزمان عن الأئمة، وكلا الكتابين صنفهما للوزير السلجوقي نظام الملك رحمه الله تعالى.

ومن عادة المتكلمين أنهم يقررون القول بوجوب الإمامة وجوبًا شرعيًّا، ويبطلون قول من أوجبها بالعقل، ثم يحصرون مسالك إثباتها في النص والاختيار، ثم يبطلون القول بالنص، فينحصر طريق إثباتها بالاختيار، فيحتاجون إلى الكلام عن أهل الاختيار وعددهم.

وقد ذكر إمام الحرمين وظيفة أهل الاختيار وحاصلها: النظر في من يستحق الإمامة، ثم تعيين واحد من الذين اجتمعت فيهم الصفات المشروطة شرعًا في الإمام حتى يعقدوا له عقد الإمامة، وخلع الإمام إذا استحق الخلع.
وهذا ينبغي التفطن له، إذ قد يُتوَهَّم أن أهل الاختيار -أو أهل الحل والعقد- الذين يتحدث عنهم الجويني وغيره، تقوم وظيفتهم في النظام الإسلامي مقام السلطة التشريعية في الدولة الحديثة، وهذا غلط جلي، بل قد قرر الجويني أن أهل الاختيار يمكن الاستغناء عنهم في العقد عندما ينفرد في الزمان متأهل للإمامة، مستجمع لشروطها، ذو شوكة يحصل بها مقصود الإمامة.

ثم ذكر الجويني صفات أهل الاختيار: كالذكورة، والحرية، والعلم، وخلافًا في اشتراط الاجتهاد، ومن أهم الصفات التي ذكرها: أن "يستعقب عقده منعة وشوكة للإمام المعقود له، بحيث لا يبعد من الإمام أن يصادم بها من نابذه وناواه، ويقارع من خالفه وعاداه".

يقول الجويني: "فالوجه عندي في ذلك أن يعتبر في البيعة حصول مبلغ من الأتباع والأنصار والأشياع، تحصل بهم شوكة ظاهرة، ومنعة قاهرة، بحيث لو فرض ثوران خلاف، لما غلب على الظن أن يصطلم أتباع الإمام، فإذا تأكدت البيعة، وتأطدت بالشوكة والعدد والعدد، واعتضدت وتأيدت بالمنة، واستظهرت بأسباب الاستيلاء والاستعلاء =فإذ ذاك تثبت الإمامة وتستقر، وتتأكد الولاية وتستمر...". [الغياثي ص251-250]

وهذه الصفة حاصلةٌ في الإمامة القهرية كما هو معلوم، لكنها مشروطة أيضًا في الإمامة الاختيارية -التي يعقدها أهل الاختيار-؛ يشترط فيهم أن يكون وراءهم من الشوكة والعدة ما يحصل به مقصود الإمامة من إقامة الدين وسياسة الدنيا به، وإلا لم تكن إمامةً.

ولما جاء إمام الحرمين إلى ذكر عدد أهل الاختيار قال: "وأقرب المذاهب ما ارتضاه القاضي أبو بكر (الباقلاني)، وهو المنقول عن شيخنا أبي الحسن (الأشعري) رضي الله عنهما، وهو أن الإمامة تثبت بمبايعة رجل واحد من أهل العقد.

ووجه هذا المذهب: أنه تقرر أن الإجماع ليس شرطًا في عقد الإمامة، ثم لم يثبت توقيف في عدد مخصوص، والعقود في الشرع مولاها عاقد واحد، وإذا تعدى المتعدي الواحد فليس عدد أولى من عدد، ولا وجه للتحكم في إثبات عدد مخصوص، فإذا لم يقم دليل على عدد لم يثبت العدد، وقد تحققنا أن الإجماع ليس شرطًا، فانتفى الإجماع بالإجماع، وبطل العدد بانعدام الدليل عليه، فلزم المصير إلى الاكتفاء بعقد الواحد.

وظاهر قول القاضي يشير إلى أن ذلك مقطوع به، وهذا وإن كان أظهر المذاهب في ذلك، فلسنا نراه بالغًا مبلغ القطع". [الغياثي ص250-249]

فهذا القول هو قول أئمة الأشعرية، وقد نصب القاضي أبو يعلى الحنبلي رحمه الله تعالى الخلاف معهم فيه في كتاب المعتمد في أصول الدين (ص239)، واختار أنه لا بد من اتفاق أهل الحل والعقد جميعًا، واستدل عليهم بأن الله أمرنا بلزوم الجماعة وهذا لا يصدق على الواحد، وبحديث: "إن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد".

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى هذه المسألة في منهاج السنة (1/526-527)؛ فقال ردًّا لقول الرافضي: "إنهم يقولون: إن الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر، بمبايعة عمر، برضا أربعة": "ليس هذا قول أئمة أهل السنة، وإن كان بعض أهل الكلام يقولون إن الإمامة تنعقد ببيعة أربعة، كما قال بعضهم تنعقد ببيعة اثنين، وقال بعضهم تنعقد ببيعة واحد، فليست هذه أقوال أئمة السنة.

بل الإمامة عندهم تثبت بموافقة أهل الشوكة عليها، ولا يصير الرجل إمامًا حتى يوافقه أهل الشوكة عليها، الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الإمامة، فإن المقصود من الإمامة إنما يحصل بالقدرة والسلطان، فإذا بويع بيعة حصلت بها القدرة والسلطان =صار إمامًا.

ولهذا قال أئمة السلف: من صار له قدرة وسلطان يفعل بهما مقصود الولاية، فهو من أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ما لم يأمروا بمعصية الله، فالإمامة ملك وسلطان، والملك لا يصير ملكًا بموافقة واحد ولا اثنين ولا أربعة، إلا أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم بحيث يصير ملكًا بذلك".

وحقيقة الأمر أن هذا الاستثناء الذي ذكره ابن تيمية في آخر كلامه: "إلا أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم بحيث يصير ملكًا بذلك" =هو مذهب الجويني، فليس بين قول ابن تيمية وقوله كبير خلاف إذًا.

وقد استدلَّ الأشعرية لمذهبهم بسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، قال أبو بكر ابن فورك في مقالات الأشعري (ص191): "وكان أبو الحسن الأشعري يقول في عدد المختارِين: ليس لذلك حد في العدد لا يزاد فيه ولا ينقص منه، بل يجب أن يكونوا ممن يصلحون لذلك إذا كانوا جماعة، وأقلهم واحد، وكان يستشهد على ذلك بعقد أبي بكر لعمر، وإجماع الأمة عليه، وتركهم النكير عليه في تفرده بالاختيار والعقد له".



وقال أبو الحسن الآمدي في أبكار الأفكار (5/188): "وإذا ثبت ما قررناه إلى هنا وجوب ثبوت الإمامة بالاختيار دون التنصيص؛ فذلك مما لا يفتقر إلى الإجماع من كُلِّ أهل الحل والعقد، فإنه مما لم يقم عليه دليل عقلي ولا سمع نقلي، بل الواحد أو الاثنين من أهل الحل والعقد كاف في ذلك، ووجوب الطاعة والانقياد للإمام المختار، وذلك لعلمنا بأن السلف والصحابة رضوان الله عليهم مع ما كانوا عليه من الصلابة في الدين والمحافظة على أمور الدين اكتفوا في عقد الإمامة بالواحد والاثنين من أهل والعقد؛ كعقد عمر لأبي بكر وعبد الرحمن بن عوف لعثمان، ولم يشترطوا إجماع من في المدينة من أهل الحل والعقد، فضلًا عن إجماع من عداهم من أهل الأمصار، وعلماء الأقطار، وكانوا على ذلك متفقين، وله مجوزين من غير مخالف ولا نكير، وعلى هذا انطوت الأعصار في عقد الإمامة إلى يومنا هذا".

وبصرف النظر عن الترجيح بين ما اختاره أبو يعلى ونحوه وبين قول الأشعرية، فإنه خلاف من جنس الخلافات الفقهية، وليس قولا مبتدعًا عجيبًا، بل هم يستدلون له بصنيع الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم.

فإذا تبين هذا؛ فلماذا يتعجب المعاصرون من قول الجويني والأشعرية في هذه المسألة ويشنعون عليه؟

والجواب: أن هؤلاء المتعجبين صنفان:

الأول: الاتجاه التنويري، وهؤلاء خلافهم مع الجويني بل مع أئمة المسلمين ليس في هذه المسألة فحسب، وإنما في غاية النظام السياسي، فالواجب البحث في ذلك أولًا، وشرح هذا: أنهم لا يرون الغاية من النظام السياسي سياسة الدنيا بالدين، وإنما هو نظام يتجه نحو تحقيق الغايات واللذائذ المادية الليبرالية، ولذا منعوا تعيين حاكم دون موافقة الأغلبية من الناس، لأن هذا مصادم لقيمة الحرية التي هي أولى القيم بالرعاية لديهم.

الثاني: بعض الباحثين في السياسة الشرعية من الإسلاميين، وهؤلاء يشترطون موافقة أغلبية الشعب في اختيار الحاكم، ولذا يتعجبون ممن يرى انعقادها بعدد قليل من الشعب فضلًا عن أن يكون رجلًا واحدًا.

وهؤلاء يبحث معهم في التكييف الفقهي لعقد الإمامة، ولو افتُرِض أن الأمة طرف فيه، فما هو مفهوم الأمة في هذا المحل وعلى من يصدُق؟ ثم يبحث في أدلتهم على اشتراط الأغلبية.

وأرجو أن يتيسر لي بحث ذلك في مقال آخر.



خطوات الشيطان

البشير عصام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فإن الله تعالى ما ترك خيرًا إلا دلنا في محكم التنزيل على سبيل بلوغه، ولا شرًّا إلا أرشدنا إلى طريق النجاة منه. وأعظم الشرور ما يزينه الشيطان لبني آدم، ويهيئ لهم أسبابه، وينمّقه في أعينهم حتى يروا منه حسنًا ما ليس بالحسن!

وإنما يصل منهم إلى حالة القبول والانقياد، بالتدرج من السهل المستساغ، إلى الصعب المستبشع، في خطوات متعاقبة، يجر أولُها إلى آخرها، بما لا فكاك عنه ولا انقطاع فيه، إلا لمن رحم الله، وأراد به الخير، فاستعان به سبحانه، واتبع إرشاده، واهتدى بنور وحيه.

وقد بيّن الله تعالى خطر هذه الخطوات الشيطانية، فقال عز من قائل:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: 21]

فـ"الخطوات" جمع "خُطوة"، وهي بُعد ما بين قدمي الماشي. والمراد بها عند أغلب أهل التفسير أعمال الشيطان وآثاره، وما يزيّنه للعبد من طاعته مما هو خلاف طاعة الله عز وجل.

والتعبير بالخطوات في هذا السياق يشير إلى معنيين اثنين:

أولهما: أن الشيطان يسير على طريق -إذ لا تعقل الخطوات إلا بذلك- وأن متبعه سالك الطريق نفسه. ومِن لازم ذلك أمران:

الأول: أن مراد الشيطان من العبد مرسوم واضح، كما تكون الطرق كلها.

والثاني: أن الشيطان يجر العبد نحو غاية محددة، إذ لكل طريق غاية ينتهي عندها!

والمعنى الثاني: أن وساوس الشيطان وما يزينه للعبد مجزّء على مراحل متعاقبة، لا تكون مرحلة منها إلا بعد وجود التي قبلها؛ كما أن السائر على طريق طويل، لا يمكنه ذلك إلا عبر خطوات متتالية، لولا وجود الأولى منها لم يمكن الإتيان باللاتي بعدها.

فتدبر هذين المعنيين، ثم استحضرهما في ما يأتي من النماذج!

بعض أنواع التدرج الشيطاني

وللشيطان -أعاذنا الله منه- مداخل عجيبة في تزيين الخطوة الأولى، فإن الانحراف كله مبني عليها!

فعلى صعيد الإيمانيات الفردية، يقف الشيطان للعبد في سبل الازدياد من النوافل والمندوبات، فيسهّل في عينه ترك بعضها: أليست غير واجبة، وتركها لا يستلزم إثمًا؟

ثم يؤول ترك بعضها إلى التهاون في جميعها، حتى تصبح الفرائض -بعد تطرق النقص إلى النوافل المحيطة بها إحاطة السياج بالحمى- مهددة بالتكاسل في أدائها، أو الإهمال في تحصيل شروطها وأركانها وآدابها، مما يكاد يلتحق بالترك الصريح!



وفي باب المحرمات: يحسّن الشيطان استباحة المحرم المختلف في حرمته بدعوى انتقال الترجيح الفقهي من القول بالتحريم إلى القول بالإباحة -وإنما هو في نفس الأمر انتقالٌ في هوى النفس الطاغية-؛ ثم يمر إلى الذي فيه شيء من الخلاف اليسير الذي لا يعتبر بدعوى وجود الخلاف -وفي الخلاف رحمة كما يقال!-؛ ثم إلى الحرام المجمع على حرمته بدعوى استحالة انعقاد الإجماع -وما يدريك لعل الناس اختلفوا!-؛ ثم تفتح أبواب الإباحة مشرعة، فلا تحريم بعد اليوم أبدًا!

وفي باب الأخلاق العامة: أكتفي بمثال يتضح به ما وراءه من النظائر.

كان الحجاب السابغ أصلًا أصيلًا يميّز المرأة المسلمة، لا يخطر ببال أحد في الأمة أن يشك في فرضيته، أو أن يدعو إلى التخلص منه. ثم اصطدمت الأمة بالفكر الوافد مع جحافل المستعمر الأجنبي، فقامت -على استحياء- دعوة إلى ترك النقاب خصوصًا! [المقصود بهذا دعوة قاسم أمين، في كتابيه (تحرير المرأة)، و(المرأة الجديدة)] ثم سار الانحراف حثيثًا إلى أن وصلنا اليوم إلى عري فاضح، تستحيي كثير من نساء الغرب من منظره؛ وإلى "حجاب" متبرج، ليس فيه من الحجاب الشرعي سوى الاسم! [(... وهذا ما جعل منحى "التحرر" لدى المرأة المسلمة يأخذ في الانهيار السريع، في أعقاب دعوة قاسم أمين، إلى الحد الذي وصلت فيه المرأة المسلمة إلى التعري الكامل أحيانًا، إلا من خرقة أو خرقتين، في حين أن النزاع الذي بدأه قاسم كان حول الستر الكامل إلا من قطعة النقاب...). جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، جمال سلطان (ص 62)].

وفي المجال اللغوي، كانت العربية الفصحى غالبة في الميادين كلها، وكانت العامية لهجة شعبية يتداولها الناس في حياتهم اليومية العامة، لكن ليس لها حظ في أدب ولا كتابة ولا تعليم ولا وعظ ولا ما أشبه ذلك. ثم تطور الأمر بسرعة إلى الحالة التي نراها اليوم. [راجع مثلًا كتاب (تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر)، للدكتور فوقية محمود] فتسللت العامية إلى الفنون والآداب أولًا، ثم إلى ميادين الإعلام والسياسة، ثم إلى الوعظ والدعوة الإسلامية [ودافع التيسير ومخاطبة الناس بما يعقلون، أفضى إلى نزول عام في مستوى الخطاب الدعوي، وأغلق الباب أمام ارتقاء عوام المسلمين إلى مستويات علمية أعلى]، ثم عمت الكتابة في الشبكة العنكبوتية، خاصة في مواقع التواصل الاجتماعي؛ وصارت العربية عند كثير من الناس نسيًا منسيًّا!

وفي الفكر والسياسة أيضًا:

وفي مجال السياسة -ومكائد الشيطان فيها كثيرة متشعبة خفية المضامين- وضعت الحركات الإسلامية أهدافًا مرحلية في طريق الوصول إلى الغاية العظمى: تطبيق شرع الله، وتعبيد الناس لربهم.

ولكن هذه الأهداف تضخمت في نفوس العاملين، حتى قتلت الغاية (الاستراتيجية) الكبرى. فصار النزاع والنقاش يدور جميعه حول الوقائع اليومية التفصيلية. وأما عن الغاية المنشودة، فقد انتقلنا من المطالبة بتطبيق الشريعة لتكون حاكمة على الأفكار كلها، ومهيمنة على القوانين جميعها؛ إلى المطالبة بتطبيقها من خلال الاختيار الديمقراطي الحر، مع الجزم بأن الناس سيختارونها ولا بد، بحيث لا ينبغي طرح السؤال عن إمكان التعارض بين اختيار الناس وحكم الله. ثم صرنا في المرحلة الثالثة نرى التركيز على المطالبة بالديمقراطية -التي صارت غاية بعد أن كانت وسيلة-، مع الالتزام بقبول نتائجها مطلقًا، ولو لم يختر الناس حكم الشريعة! والمرحلة الرابعة التي وصل إليها بعض "الإسلاميين" ملتحقين في ذلك بدعاة الليبرالية والمنتكسين عمومًا: المطالبة بـ"روح الشريعة"، وهي كلمة فضفاضة مطاطية يمكن لأي أحد أن يدخل فيها ما يشاء من المبادئ والأفكار، ناسبًا ذلك لشريعة المصطفى المختار، عليه الصلاة والسلام.

فما الذي بقي من القضية الكبرى بعد هذه الخطوات الإبليسية؟ خاصة مع حرب الشبهات والشهوات، وحملات التشويه المنهجي، التي تجعل الجماهير لا تختار حكم الشرع إلا بعد أن تذبح الأحزاب الإسلامية المشارِكة قرابين الولاء المطلق على هيكل الديمقراطية، بشقيها الإجرائي والأيديولوجي؟! [والتفريق بين الشقين خيال لذيذ، يتلمظ بعض الإسلاميين بحلاوته، إلى أن تفجأهم مرارة الواقع الذي يربط بينهما، ولا يعرف معنى للفصل بينهما]

وكانت الحركات الإسلامية تطالب في بداياتها بالوحدة الإسلامية الشاملة، التي ترجع بالمسلمين إلى الأصل الذي ينبغي أن يكونوا عليه: أمة واحدة، يحكمها شرع واحد، ويرتبط أفرادها بعقد ديني واضح.

ثم ارتأى جماعة منهم أن هذه الغاية -لصعوبتها- ينبغي أن تمر أولًا عبر العمل المركز في كل قطر على حدة. وهذا في ذاته أمر مقبول، ولكنه تطور إلى تجاهل غاية الوحدة، وعقد الولاء على أساس الوطنية الضيقة، حتى آل الحال إلى تقبل بعض الإسلاميين وجود النزاع العسكري مع قطر إسلامي آخر، لأسباب سياسية خالصة، لا تستحضر بالطبع ضوابط الشريعة!

إن من عدم الإنصاف أن نعلق هذه الأغلاط والانحرافات على تصرفات أشخاص معينين، كأن العيب فيهم على جهة الخصوص، لا على المنهج الفكري "التنازلي" الذي سلكوه ابتداء، وصفق لهم فيه بعض الناس، أو أقروهم عليه -على الأقل- جاعلين ذلك من باب الاختلاف في الاجتهاد، الذي لا يفسد للود قضية.

وأنا أزعم أن العيب ليس في هؤلاء الأشخاص الذي انحدروا إلى هاوية الانحراف هذه، بل المنهج المذكور يجر نحو الباطل جرًّا لا محيد عنه، والتنازلات الفكرية المتتالية لازمة له لا انفكاك عنها، ورحلة القبول بالباطل تبدأ منذ السكتة الأولى عن نقده أو مدافعته، لأجل مصلحة موهومة.



أو كما يقول جمال سلطان في سياق قريب مما نحن بصدده:

"إنه الطريق ذو الاتجاه الواحد كما قدمنا، إذا بدأت فيه خطوة واحدة، انتهيت لا محالة إلى التبعية الحضارية والشعورية، وأقصى ما تفعله معك بقايا "الأصالة" هي أن تصيبك بنوع من الفصام النفسي الحضاري، والقلق والتردد بين النظرية والواقع ...". [جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، جمال سلطان، ص18. قاله في نقد رفاعة الطهطاوي]

حلول مقترحة للعلاج

وإذا كان الانحراف راجعًا -في معظمه- إلى منهج العمل، وطرائق السير؛ لا إلى أغلاط الأشخاص وسوء تصرفهم، فإن من المتعين تصحيح المنهج المعتمد منذ البدء. وهذه بعض الضوابط التي يجب مراعاتها في هذا المجال:

• ينبغي حماية الذاكرة الفردية والجمعية من آفة نسيان الغايات المسطرة، في غمرة الانشغال بالعمل اليومي المتسارع. فإهمال الغاية الكبرى أعظم داع لوقوع الانحراف. ولا سبيل إلى حماية الذاكرة إلا بالتذكير الدوري الذي لا ينقطع.

• ينبغي تأخير التنازل الأول ما أمكن، فإن الخرزة الأولى إذا غادرت موضعها =أوشك العقد أن ينفرط كله. والجيش المقاتل في أرض عدوه، يملك من عوامل التدارك والتحيز، ما لا يملكه الذي يقاتل على أرضه هو! وقد أسلفنا أن النوافل للفرائض مثل السياج الحافظ، فلتكن المدافعة على السياج الخارجي، لا داخل الحمى المستباح!

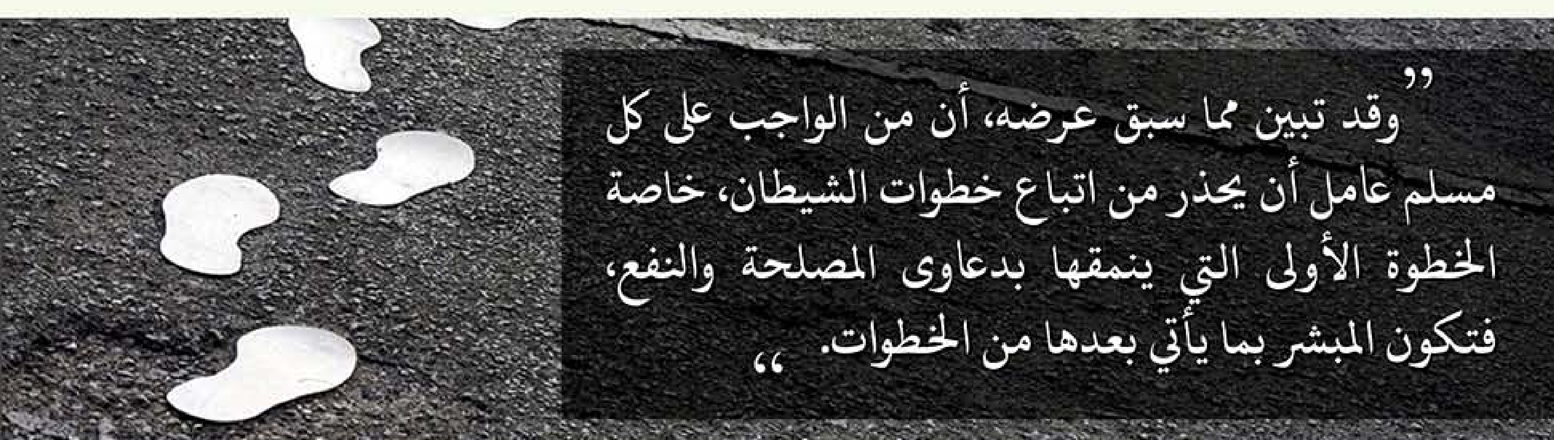
• ينبغي التأصيل لقاعدة سد الذرائع، وتحرير ضوابطها، لتكون حاضرة عند الفتوى المرتبطة بالعمل الإسلامي عمومًا. فما كان ذريعة إلى انحراف -ولو بعد حين- يجب المنع منه ابتداء. ولهذه القاعدة ضوابط تعرف من علم أصول الفقه، ليس هذا محل بسطها.

• إن العمل بالفتوى المرخصة ينبغي أن يكون مع الاستحضار التام في جميع مراحل العمل لكل قيودها وشروطها، وضوابط استعمالها. ومن الشائع في مجال الانحراف أن يتحول الجائز في أحوال الضرورة إلى جائز مطلقًا ولو في حال السعة، والمباح لأجل درء مفسدة متيقنة إلى مباح لدفع مفسدة موهومة متخيلة، وهلم جرا.

وتأمل على سبيل المثال مسألة الغناء والمعازف، وكيف كانت الفتاوى المبيحة -على استحياء- تقيد وتشترط، فما بلغ حكمُ الإباحة مسامعَ عبيد الهوى، حتى أسقطوا القيود وانطلقوا دون رادع، حتى صار القول بالتحريم اليوم غريبًا عند كثير من الناس!

• لا يضير التنازل إن كان منهج السير سليمًا؛ ولكن إذا كان المنهج غلطًا، والنموذج المقترح للقدوة باطلًا = فإن التنازل الأول مهما صغر يكون عظيم الضرر. ومن هنا كانت خطورة الذي يجعل القدوة في العمل السياسي: المثال الغربي بحمولته الفكرية (الديمقراطية وحقوق الإنسان وغيرها)، أو الذي يجعل الأسوة في تحرير المرأة من أغلال التقاليد: النموذج الغربي في التعامل مع المرأة وقضايا المجتمع. ففي الحالتين معًا -وعلى الرغم من تسطير الأصول الشرعية العامة- لا بد من وقوع الانهيار السريع، لأن النموذج الحي الموضوع للاقتداء به يعود على هذه الأصول النظرية بالنقض والإبطال.

إن مراعاة هذه الضوابط كفيل بحفظ العمل من الانحراف، دون الوقوع في التشدد بفرض ما ليس فرضًا، وتحريم ما قد يكون جائزًا لضرورة أو في حالة معينة.



ومن الواجب أيضًا التنبه إلى أنه لا ينفع مع هذه الخطوة صلاح النية، وصحة القصد، فإن الانحراف عن الصراط القويم لازم لها، ما لم تراعَ مجموعة من الضوابط الحافظة.

والله الموفق.

نقد التقريب بين الإسلام والليبرالية

التسامح مع الآخر (1/2)

حسين عبد الرازق

إن أكثر الدَّاعين -من المفكرين والسياسيين والإعلاميين - لضرورة تبني الليبرالية الغربية في العالم العربي الإسلامي، كشرط ضروري ليكون جزءًا من العالم الحديث، ومنذ بداية الاطلاع على حداثة أوروبا في النصف الأول من القرن (19) وإلى الآن=قد أكَّدوا مرارًا على أن (روح الإسلام) لا تتعارض، بل توافق وتشهد لمبادئ الليبرالية، مما يؤكد إمكانية التوفيق بينهما؛ لكن بشرط: أن يُفهم الإسلام على حقيقته -على حد تعبيرهم- وقد أكدوا كثيرًا على ضرورة القيام بحركةِ إصلاحٍ ديني، يُشرح فيه الإسلامُ ليتوافق مع روح العصر.

لكن الخطاب الليبرالي العربي إذْ يزعم موافقةَ الإسلامِ لليبرالية كان عليه أمران:

الاستدلال من (شريعة الإسلام) لمبادئ الليبرالية، وكمثال: في أن المرجع في العلاقات والمعاملات للعقل وليس للوحي، حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "أنتم أعلم بأمور دنياكم". والديمقراطية هي بعينها (الشورى) قال تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: 159]

وحرية التدين، وحرية الرِّدة ﴿ مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف: 29]، ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾[البقرة: 256] وهكذا.

كذلك عليهم (وهو الأهم) رد كل ما يُعارض المبادئ الليبرالية من الشريعة الإسلامية، إما بأنه ليس حجة، أو لا يثبت، أو لا يدل على المعنى، فمثلًا: في حرية الردة وعدم معاقبة المرتد سيعارضهم حديث: "من بدل دينه فاقتلوه"، وحديث: قتل "التارك لدينه المفارق للجماعة"، فالجواب عندهم أنه حديث ضعيف ليس بحجة والقرآن لم يذكر هذا الحكم، أو بمحاولة تفسيره بأن المرتد المقصود بالحديث هو من يحارب الإسلام وينتقصه ويُسيء إليه، أو غيره من التفاسير، المهم: ألا يعارض مبدأ حرية التدين والردة... وهكذا.

وهذه سلسلة مقالات أبدأها بإذن الله تعالى في نقد هذا التقريب، واخترت أن يكون أول هذه السلسلة مسألة:

(التسامُح مع الآخر).

فالتسامح جزءٌ رئيس من منظومة مفاهيم يريد الغربُ تعميمها وفرضها على العالم الإسلامي، وأصبح الحديث عن الآخر وحقوقه جزءًا رئيسًا في نشر ثقافة التعددية والحرية.

وإن قضية "التسامح" بالمعنى الليبرالي أحد أهم ما يحرص الليبراليون العرب على الترويج له، والزَّعْم بأنه متوافق مع الإسلام.



وسيكون الحديث إن شاء الله في النقاط التالية:

- **تحرير دلالة لفظ التسامح الليبرالي.**
- **نشأة التسامح الليبرالي وتطور دلالته.**
- **علاقة التسامح بالنسبية والعلمانية.**
- **حكم الإسلام في التسامح الليبرالي.**

أولًا: تحرير دلالة مصطلح التسامح الليبرالي:

كثيرًا ما تختلف دلالة المصطلح الواحد عند المتكلمين به بما يصل إلى حد التناقض، فكان ضروريًّا التحرير الدقيق لكل مصطلح كمقدمة لتصوره تصورًا صحيحًا.

التسامح: تتعدد تعريفاته عند الليبراليين؛ لكن يجمعها أنه: "**فضيلة تَعني الإمساكَ عن ممارسة المرء سلطتَهُ في التدخل في آراء الآخرين وأعمالهم، مع كونه لا يوافِق عليها، ومع قدرته على التدخل والمنع والإنكار، فهو يقبل من أجل العيش المشترك في المجتمع**".

ويختلف التسامح عن (الحرية) التي تعني قيام المرء باختيار دينه ورأيه، ويختلف عن (اللامبالاة) التي تعني انعدام الشعور إزاء أمرٍ ما، فهذا يسمى بالتسامح السلبي، ويختلف عن (العُزلة) بمعنى عدم التدخل لعدم القدرة، وهو لا يعني (الحيادية) بين الآراء المختلفة.

والليبرالية لا تؤمن بالرقابة أو أي وسيلة لمنع حرية التعبير ونحوه في المجتمع، حتى لو كان تحديًا لثوابت المجتمع.

نشأة التسامح:

نشأ التسامح بوصفه فكرة على أنقاض الحروب الدينية في أوروبا، ثم تحول فيما بعد إلى مبدأ له مرتكزات أساسية يقوم عليها، فقد عاشت أوروبا عهودًا من الطغيان الكنسي والاضطهاد الديني، كان من أبرز معالمها (محاكم التفتيش)، وقد أثر هذا تأثيرًا كبيرًا على الواقع السياسي والفكري في أوروبا في القرن السابع عشر الميلادي وبعده.

وقد أدى التعصب المذهبي في أوروبا إلى بروز اتجاهين فكريين:

يرى الاتجاه الأول أنه انطلاقًا من صعوبة توحيد النصارى لحمل كل فئة منهم لرؤى مختلفة لما يمثله الإيمان الحق بالنسبة لها =فإنه يمكن الوصولُ إلى اتفاق حول الحد الأدنى من أساسيات الاعتقاد العام في إطار كنسية (شاملة)، مع بقاء الاختلافات في المعتقدات غير الأساسية وفي أشكال العبادة القائمة بين النصارى.

أما الاتجاه الثاني والرافض لمفهوم الكنيسة (الشاملة) فقد طرح أفكارًا تدعو إلى التسامح لكل المعتقدات النصرانية، وقد قويت شوكة هذا التوجه في الجزء الأخير من القرن السابع عشر.

التسامح وفصل الدين عن الدولة:

شكلت التوجهاتُ السابقةُ الخلفيةَ الفكرية لأطروحات (جون لوك) المؤيدة للتسامح الديني المرتبط بالعلمانية؛ فبدءًا بكتابات (لوك) بدأ الربط المباشر بين تحقيق التسامح في المجتمع وفصل الديني عن السياسي بالمطالبة بإرساء دعائم مجتمع (مدني) سياسي منفصل عن السلطة الدينية، والذي أصبح فيما بعد مطلبًا أساسيًّا لدعاة التسامح من الليبراليين العلمانيين، وقد بدأت بواكير الدعوة نحو ضرورة فصل الدين عن الدولة بـ(بحث في التسامح) كتبه لوك عام (1667م)، أكد فيه أنه (لا ينبغي للحاكم الديني أن يتدخل فيما يؤمن السلام المدني وممتلكات رعيته) وبناءً على ذلك فـ(ليس للحاكم المدني أي سلطة على الرعية فيما يتصل بالدين، لأن أمور الدين تخص الفرد والله فقط، إنها أمور كلها بين الله وبيني أنا).

ثم أكد لوك في كتاب (رسالة في التسامح) الذي نشر عام (1689م) أن قيام التسامح يقتضي بالضرورة فصل الكنيسة عن الدولة، وذلك من خلال مناقشة حدود سلطة الحاكم المدني حيث يقول: (الدولة جماعة من الناس تكونت لغرض وحيد، وهو المحافظة على خيراتهم المدنية وتنميتها، وأنا أقصد بـ (الخيرات المدنية) الحياة وسلامة البدن وحمايته ضد الألم، وامتلاك الأموال الخارجية، مثل: الأرض، والنقود،والمنقولات).

ومن ثم فلا يصح أن تتوسع سلطة الحاكم لتشمل نجاة النفوس وذلك لعدة أسباب:

أولًا: لا يندرج ضمن اختصاصات الحاكم المدني رعاية النفوس، فالله لم يمنحه هذه السلطة ولا الناس كذلك أعطوه سلطة على إيمانهم.

ثانيًا: أن السبب في عدم اندراج رعاية النفوس ضمن اختصاص الحاكم هو أن (كل سلطة تقوم على الإكراه، أما الدين الحق المنجي فيقوم على الإيمان الباطن في النفس)، ومن ثم فالسلطة المدنية (لا ينبغي لها أن تفرض عقائد الإيمان بواسطة القانون المدني، سواء تعلق الأمر بالعقائد، أو بأشكال عبادة الله).

ثالثًا: لا يمكن لرعاية نجاة النفوس أن تتعلق باختصاصات الحاكم المدني، (لأنه حتى لو أقررنا أن سلطة القوانين وقوة العقوبات قادرة على تحقيق تحويل النفوس؛ فإنها لا تفيد شيئًا في نجاة النفوس)، فطرق العبادة متعددة وقصرها على عقائد الحاكم أو ما يراه صوابًا أو خطئًا من الناحية الدينية =يضيق على الناس ويمنعهم من حرية العبادة، ولذلك يؤكد (لوك) بناءً على ما سبق: (أن كل سلطة الدولة لا تتعلق إلا بالخيرات المدنية، وأنها مقصورة على رعاية شؤون هذه الدنيا، وأنه لا يحق لها أن تمس أي شيء يتعلق بالحياة الآخرة).

ثم تناول لوك من جانب آخر الكنيسة وحدود سلطانها بقوله:

(الكنيسة جماعة حرة مؤلفة من أناس اجتمعوا بإرادتهم لعبادة الله علنًا، على النحو الذي يرونه مقبولًا وكفيلًا بتحصيلهم للنجاة).

وبناءً على هذه الرؤية للكنسية ودورها أكد لوك وجوب فصل سلطة الكنيسة عن سلطة الدولة، وتأطير سلطة الكنيسة وتحديد حدوها، بتأكيده على أن الذين يكتسبون صفة كنسية ويمارسون وظيفة دينية فإن سلطتهم: (يجب أن تنحصر داخل حدود الكنيسة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تمتد إلى الشؤون المدنية، لأن الكنيسة نفسها منفصلة تمامًا ومتميزة عن الدولة وعن الأمور المدنية، إن الحدود على كلا الجانبين ثابتة ولا يمكن تغييرها، ومن يخلط بين هاتين الجماعتين المختلفتين كل الاختلاف في الأصل والغاية والجوهر =إنما يخلط بين السماء والأرض، وبين أمرين هما في غاية البعد والتضاد الواحد بالنسبة إلى الآخر).

وبناءً على الاختلاف بين وظيفة الدولة ووظيفة الكنيسة ومنع الكنيسة من التدخل في الأمور الدنيوية المدينة أكد لوك بأنه (لا يستطيع أحد مهما كانت وظيفته في الكنيسة أن يحرم أي إنسان آخر ينتسب إلى كنيسة أخرى أو على إيمان آخر من حياته، أو حريته، أو أي جزء من خيراته الدنيوية بسبب الدين).

ويمكن القول: إن كتابات (جون لوك) أسهمت بشكل مباشر في تقديم رؤية للتسامح، تنطلق من ضرورة فصل الديني عن السياسي، والتي أصبحت فيما بعد شعارًا ليبراليًّا قائمًا بذاته، بمعنى أن التسامح الليبرالي يتطلب قيام مجتمع علماني (لا ديني)، يتم فيه فصل الدين عن الدولة، كما هيأ نقد لوك لسلطة الكنيسة الفرصةَ للكتابات الناقدة للدين؛ حيث خطت الكتابات التي تلت كتابَه عن التسامح خطوة أبعد من المناداة بفصل الدين عن الدولة إلى المناداة بنقد الدين، الذي أصبح يُنظر إليه بوصفه أحد المسببات الرئيسة للتعصب).

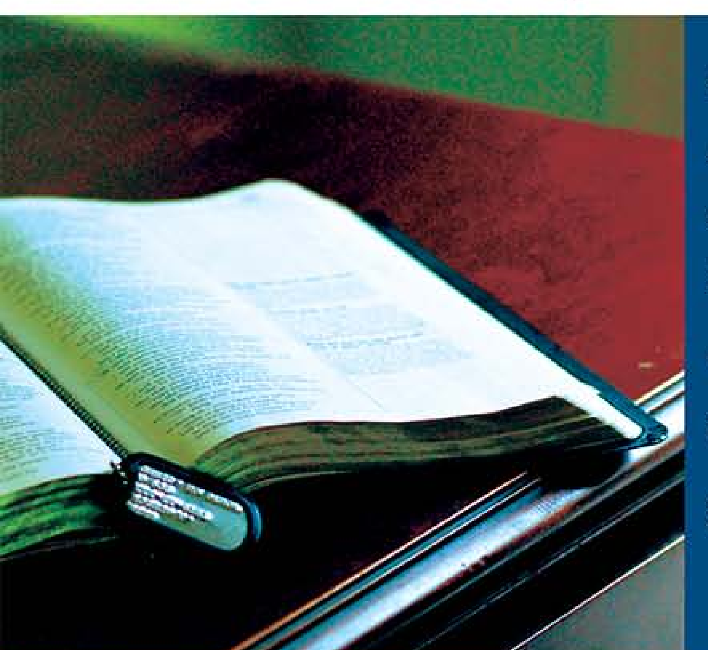
وقد كان يرى بيير بايلي(Pierre Bayle)(أنه ليست هناك حاجة إلى دين رسمي تتولاه الكنائس)، كما دافع (مونتسكيو) بطريقة غير مباشرة عن التسامح الديني، التي أكد فيها ما أكده جون لوك من قبل، بأن التعصب الديني وانعدام التسامح أديا إلى خسائر جسيمة للدولة، وذلك لأن الاضطهاد الديني دفع الكثير من الأفراد إلى الهجرة، وهو ما أثر على الرفاهية الاقتصادية والتقدم الصناعي.

وقد لفت (مونتسكيو) الانتباه في كتابه (روح القوانين) إلى أمرين آخرين يتعلقان بالتسامح والتعصب الديني، فقد رأى:

أولًا: أن السماح بتعدد الأديان في الدولة لن يؤثر على أمنها، من منطلق كون المذاهب الدينية كلها تدعو إلى الإذعان، وتفرض الطاعة، وهو ما يسهم في تحقيق الأمن الداخلي في الدولة.

أما الأمر الثاني: فهو أن سبب التعصب يكمن في (روح الحماسة) لدى المهتدين الجدد، والمعتنقين المتحمسين، والذي يمكن أن يؤدي نموه المتزايد إلى انحسار العقلانية، ونظرًا لأن مونتسكيو عدَّ التسامحَ مبدأً سياسيًّا، فلم يُول أي اهتمام لصحة الدين أو زيفه، وقد كان (مونتسكيو) من (الربوبيين)، أي المنتمين إلى مذهب الربوبية الذي ساد في القرن الثامن عشر، وهو مذهب فكري يدعو إلى الإيمان بدين طبيعي مبني على العقل لا على الوحي، ويؤكد على الأخلاقيات الطبيعية، مُنكرًا تدخل الخالق في نواميس الكون، ويشمل الإيمان بإله بغير اعتقادات بديانات مُنزلة، وقد أدى انتماء مونتسيكو إلى المذهب الربوبي إلى تأكيده أن العقل والأخلاق يؤديان إلى التسامح، وفي المقابل فإن التعصب والحماس الديني غير العقلاني يؤديان إلى التعصب والاضطهاد وعدم التسامح، كما قام (فولتير) كذلك بنقد الحماس الديني، والتعصب غير العقلاني، في إطار نقده المتواصل للإكليروسية أو الكنيسة الكاثوليكية أو حتى النصرانية ذاتها.

وقد ربط (فولتير) (بين دعوته للتسامح ومناوأة النصرانية، من خلال الربط بين التعصب والإيمان بالدين المنزل من عند الله، ورأى أن وجود الكنيسة ورجال الدين يعد أهم معوقات تقدم الإنسان نحو العقلانية).



وبكلمة: إن معظم كتابات المفكرين الغربيين عن التسامح تأسست على حتمية الفصل التام بين الديني والسياسي، ومنع الدين ومؤسساته من التدخل في شؤون الدنيا، وذلك من منطلق كون الدين يشكل علاقة خاصة بين المرء وربه، ومن كون الدين يؤسس للتعصب والانغلاق الفكري، وهو ما يُوجب حصره في زاوية محددة وتأطيره وتحجيمه، حتى تسود قيم العقلانية والتسامح (اللاديني) في المجتمع.

أما (جون ستيورات مل) الذي كان من أشد المدافعين عن التسامح في القرن التاسع عشر فقد ربط التسامحَ بالحرية الفردية المطلقة، وأشار إلى أن المبرر الوحيد المقبول للتدخل في حرية الفرد هو ظهور ما يؤكد أن هناك خطرًا أو تهديدًا لحريات الآخرين، وفي حين انصب اهتمام لوك على حماية الحرية الفردية من تدخل الدولة والكنيسة انصب اهتمام (مل) على معوقات الفردية النابعة من القانون غير المكتوب أو الضغط الناشئ من العرف والرأي العام، أي: ما يسمى بالعادات والتقاليد، ولقد كان (مل) يأمل في توسعة دائرة التسامح من الحقل الديني والسياسي إلى حقل الأخلاق والسلوك، وإلى كل الأفعال المرتبطة بالمصلحة الشخصية للفرد، وقد تحقق ذلك فيما بعد؛ وذلك بتجاوز الدعوة إلى إقرار الفصل بين الدين والدولة الذي أصبح مسَلمة ليبرالية إلى الدعوة إلى ربط التسامح بالحرية المطلقة للأفراد.

وقد انتقد (مل) مجتمعه الذي كان يستهجن ويعاقب بالنبذ وغيره أفعالًا تندرج ضمن الحرية الفردية للإنسان؛ كالمعاشرة دون عقد زواج (الزنى)، أو العمل في أيام العطلة الدينية، وقد شعر (مل) بأن الأفراد يتعرضون للقهر والحصار من الأعراف والقوانين غير المكتوبة بشكل أكبر من القوانين المفروضة من قبل الدولة، ورأى أن الحرية والتنوع لا يمكن أن يزدهر في ظل القمع والاستبداد الاجتماعي، ولذلك طالب (مل) بإرساء التسامح لحماية الحرية والفردية والتنوع في المجتمع.

ومن ثم فقد خطا (مل) بالتسامح خطوة أبعد من حق ممارسة الدين أو الانتماء إلى مذهب معين أو المطالبة بفصل الدين عن الدنيا، إلى حق المرء المطلق في الحرية وعدم السماح بالتدخل في شؤونه الخاصة ما دام ذلك لا يتعارض وحرية الآخرين، وقد ساهمت كتابات (مل) في إرساء دعائم القيم الليبرالية المنادية بربط التسامح بالحرية الفردية.

وأصبح التسامح منذئذ يشكل العمود الفقري لليبرالية.

وكان من أهم الأسس الفكرية التي بُني عليها التسامح الليبرالي: (العلمانية)؛ حيث تم تأسيس الفكرة على ضرورة الفصل بين الدين والدولة بوصف ذلك شرطًا مسبقًا لقيام التسامح في المجتمع، وهذا ما أكده عدد من الكتاب العرب الداعين إلى إقرار ثقافة التسامح المبنية على (اللادينية)، والذين تناولوا العلاقة بين التسامح والعلمانية.

إذًا: هذه المنظومة الفكرية تعبر عن حاجات نابعة من بيئة معينة، وتنسجم مع توجهات فكرية محددة، تجعل نقلها ومحاولة فرضها على الآخرين خطأً فادحًا، وهذا ما أكده (برنارد لويس) في محاضرة بعنوان (العنصرية واللاسامية) بقوله: (إن فكر التسامح قد ولد في النصرانية على إثر الحروب الدينية في أوروبا، التي راح ضحيتها آلاف النصارى نتيجة النزاع الدموي بين الكاثوليك والبروتستانت؛ فالتسامح هو الذي يعني فصل الدين عن أعمال الدولة، وباختصار هو العلمانية التي وجدت لحل مشكلة النصرانية).

نتيجة مهمة: فالتسامح العلماني إذًا نتاج غربي معبر عن حضارة الغرب ومفاهيمه وظروفه التي أحاطت به؛ لمواجهة الحروب الدينية والتعصب الديني الذي اجتاح أوروبا من القرن السادس عشر وحتى منتصف القرن السابع عشر؛ فقد وجد الغرب أنه لا مخرج له من الحروب الدينية إلا بتبني التسامح العلماني، الذي لابد أن يؤسس على معادلة عقلانية يحتكم إلى منطقها في فصل المقال (والمقام) فيما بين الدين والسياسة من اتصال، والذي يعد مطلبًا لتحقيق التسامح في أي مجتمع، وهو ما يعني أن المجتمع لكي يصبح متسامحًا لابد أن يكون مُعَلْمَنًا لا دينيًّا.

من ناحية أخرى أدى بروز الحداثة وظهور مفاهيم سياسية جديدة منها (دولة القانون والمجتمع المدني والعلمانية) إلى توسع مفهوم التسامح؛ليشمل حرية الرأي والفكر والأعمال، بعد أن كان مقتصرًا على حرية العبادة.

والدَّاعون من المفكرين والكتاب الليبراليين العرب لضرورة فصل الديني عن السياسي في بلاد المسلمين لتحقيق التسامح =يسعون لمحاولة إثبات التعصب الديني الإسلامي بما يشابه التعصب الديني الكنسي الأوروبي، فمن ثَمَّ: إذا كانت العلمانية هي الحلَّ للخروج من هذا التعصب الديني في أوروبا؛ فكذلك ينبغي تبنّي العلمانية في العالم الإسلامي.

التسامح والنسبية:



تبني الليبرالية فلسفتها للحياة على مبدأ النسبية، فالأخلاقُ والقيم والنظم والظواهر الاجتماعية والعلم كلها نسبية، حيث لا يوجد حقائق مطلقة، وعليه فالليبرالية تنكر أي ثبات في القيم الدينية والأخلاقية، لذا فهي تؤسس للشك والنقد في رؤيتها للحياة، وهذه الرؤية مؤسَّسَةٌ على مبدأ الحرية الفردية، فالأفراد هم مصدر إنشاء القواعد الأخلاقية بالاعتماد على عقلانيتهم القائمة على مبدأ ما هو نافع للفرد فهو خير، وما هو ضار له فهو شر، وعندما تتعارض بعض القواعد مع مصالح الأفراد ومنافعهم فلهم حق تغييرها أو تعديلها، ويعني ذلك أن الحقائق الأخلاقية متغيرة بتغير المجتمعات والأفراد والمكان والزمان؛ فما يقره الأفراد والمجتمع يصبح مشروعًا وإن كان مستهجنًا من الناحية الفطرية للإنسان، فليس هناك ثوابت؛ فكل شيء نسبي، والعقل هو أداة إيجاد البدائل، والمنفعة ومصلحة الفرد هي غايته.

ولأنه لا توجد قيم مطلقة الصحة عند الليبراليين العلمانيين فلابد من ترك الأفراد وما يعتقدون، دون تدخل من أي جهة أخرى.

والإقرار بحق الآخرين في حمل ما يشاؤون من معتقدات وتبني ما يريدون من سلوك والاعتراف لهم بهذا الحق = يؤدي إلى الاعتراف بالنسبية بوصفها قاعدة يبنى عليها مفهوم التسامح الليبرالي؛فالمتسامح وفقًا لهذه الرؤية يقر بانعدام الصحة لأفكاره ورؤاه، وهو يعني ضرورة الاعتراف للآخرين بكامل حقوقهم وحرياتهم وتقبل أفكارهم وآرائهم التي يعتقدون صحتها.

ومن ثَم فلا يصح فرض الرأي سواء أكان عقديًّا أم أخلاقيًّا على الآخرين، فالآخر لابد أن يظل آخر، وأن تحترم آخريته مهما اعتقد المرء فيها بأنها تنافي الأخلاق، أو تصطدم مع العقيدة، وذلك لأن الأخلاق والعقائد والقيم -أصلًا- نسبية وفقًا للرؤية الليبرالية للتسامح.

وهذا ما يؤكده (توماس مارتنز) من ضرورة توفر الشك والنسبية ليتوفر الوضع الذي يسمح بالتسامح في المجتمع؛ حيث يؤدي غيابهما إلى غياب التسامح.

فالتسامح يقتضي انتشار الحيادية القيمية والأخلاقية (اللادينية) في المجتمع، وهي القيمة التي أفرزها عصر التنوير الأوروبي، الذي كان من أهم أهدافه:



تحرير الإنسان من تحيزاته الدينية والسياسية لكي يتسنى له اتخاذ قراراته بنفسه فيما يتعلق بقيمه السامية، بدلًا من التسليم بمجموعة من القيم الجامدة التي درج عليها العرف بأنها قيم صالحة ومُسلم بها، إلا أن حركة التنوير في أوروبا ارتبطت تاريخيًّا بفكرة تفوق القيم اللادينية، بل كانت مرادفة لها في كثير من الأحيان.

وقد ساد الاعتقاد بأن النزاع بين الآراء الدينية يمكن الآن حله بالنظر في الحقيقة الموضوعية لعصر التنوير، الذي اتسم بالنظرة المحايدة للأشياء، وهذا ما أكده (كارل بوبر) بربطه بين التسامح والعقلانية والحياد بقوله: (لا بد أن نعترف بأن كل الآراء قابلة للدفاع عنها، وأن كل الآراء متساوية).

هذا الموقف هو ما يطلق عليه النسبية، التي أضحت شرطًا مسبقًا لقيام مجتمع تسود فيه قيم التسامح الليبرالي، والنسبية بما تقرره من انعدام اليقين وإرساء دعائم الشك تخلق واقعًا يمكن أن يطلق عليه (التسامح العقدي)، المبني على الفكرة القائلة: "إن كل عقيدة يحملها المرء فهي صحيحة، أو فيها من الصحة ما يعطي معتنقها الحق في اعتناقها"

ونظرًا لقيام المجتمع على النسبية فلا يصح وجود يقينية عقدية تتأسس على مفهوم الحق والباطل، وذلك لأن المجتمع حتى يصبح متسامحًا فلابد له من الاعتراف بأن الحقيقة متعددة نسبية وليست مطلقة، فالحق حق عند حامله فقط، والباطل باطلٌ عند ناقده فقط، وعلى هذه الرؤية يتأسس التسامح العلماني المبني على الشك والنسبية، فالأديان كلها قادرة على أن تكون سببًا لكمال أتباعها وخلاصهم.

وفي ظل هذا الوضع التعددي لابد للتسامح حتى يثمر أن يستند إلى دولة ديمقراطية (محايدة)، أي: علمانية لا تفرض قيمًا، ولا ترتكز إلى أخلاقيات عُليا خارجة عن المجتمع التعددي.

ومفهوم (حيادية الدولة) يعني عدم تدخل الدولة بالمنع والإلزام لفرض رؤية قيمية معينة، أو منع رؤية تراها لا تتفق مع القيم؛ وذلك لأن الدولة -كما يفترض التسامح الليبرالي- لا تحمل قيمًا ولا توجه مجتمعًا؛ فهي دولة محايدة تقف موقف المتفرج من تعدد القيم والرؤى دون إلزام أو إكرام، وهو ما يقتضي بالضرورة أن تكون دولة لادينية.

يتضح مما سبق أن فكرة التعددية الدينية تمثل حلًّا وسطًا لخيارين هما: القبول بشيء محدد على أنه يمثل الحق، أو رفض كل شيء من منظور العدمية التامة؛ فجاءت الفكرة لتعني قبول أي شيء على أنه حق من منظور تعدد الحق. أما الحياد الأخلاقي الذي تقوم عليه الديمقراطية الليبرالية والذي يعد شرطًا لقيام التسامح في المجتمع التعددي؛ فإنه يتمثل في قيام الدولة بعدم فعل شيء إزاء القيم والرؤى والسلوك المتضارب المختلف في المجتمع؛ فهي لا تعدو كونها (مراقبًا) عن بُعْد دون أن تلعب أي دور إيجابي في زرع القيم أو فرضها على المجتمع.

(أفدت من كتاب "نقد التسامح الليبرالي، لمحمد مفتي").

في المقال التالي إن شاء الله:

رؤية نقدية، وتشمل:

التسامح الليبرالي بهذا المعنى لا يُقره الإسلام.

بيان مذهب الإسلام مع الكافر (الآخر) باختصار.

نقد التسامح الليبرالي الغربي من حيث: (النظرية، والتطبيق).



من اللعن إلى الخلاص

نظرة على تطور موقف الكنيسة من خلاص الملحدين

هيثم سمير

هل تصورت من قبل أن ينال ملحدٌ الخلاصَ من العذاب الأبدي, الذي هو وعيد الله في كل دين لمن كفر به وبرسالاته؟

ربما يبدو السؤال ساذجًا, لكنَّ ما أثاره هو تصريحات (البابا فرنسيس) في روما منذ أيام قليلة؛ حيث قال فيها : «إن الرب قد فدانا جميعًا بدم المسيح, كلنا, ليس الكاثوليك فقط. الجميع! حتى الملحدين؟ نعم. كلنا!».

أثارت تلك التصريحات جدلًا كبيرًا في أوساط الكنيسة الكاثوليكية وفي أوساط الملحدين! وتوالت التعليقات بين المرحب، والمستهزئ، والمستنكر، ومن حاول شرحها بأسلوب آخر.

وقد دعاني هذا الجدل إلى مراجعة موقف الكنيسة من الآخَر.

بعيدًا عن التعقيدات والخلافات السوتريولوجية (العلم المسيحي المعني بعقيدة الخلاص) الكثيرة؛ فمن المستقر في عرف الكنيسة: المصطلح الذي صاغه كبريانوس القرطاجي في القرن الثالث «لا خلاص خارج الكنيسة, Extra Ecclesiam nulla salus» "ANF01, Vol05, The Epistles of Cyprian,72" . فماذا حدث؟

لنستعرض بعضًا قليلًا من تاريخ الكنيسة في موقفها من الآخر، ونرصد معًا تطوراته.

فالكنيسة بعد أن استقر لها الأمر في أوروبا، وأصبحت هي ديانة الإمبراطور =تعاملت مع كل مخالف بعصبية شديدة، وبتطرف شديد, و خاصة مع كل صاحب قول وفكر، وكانت عدوة لكل علم لا يصب في صالحها؛ «فقد قامت الكنيسة بحرق كمية ضخمة من الكتابات، في عام 391 حرق المسيحيون واحدة من أعظم المكتبات في الأسكندرية, يقال إنها كانت تحتوي على 700000 ملفوفة.

بالإضافة إلى كل كتابات باسيليدس الغنوصي, مجلدات فرفريوس ال36 , مخطوطات وبرديات لـ200 مدرسة من مدارس الديانات السرية, و270000 وثيقة جمعها بطليموس, كل ذلك قاموا بحرقه. الأكاديميات التعليمية القديمة أغلقت، وتم إنهاء تعليم أي شخص خارج الكنيسة». "History of Medieval Christianity, Jeffrey Burton,103"

وفي نفس الحقبة تقريبًا «منع مجمع قرطاج الرابع قراءة كتابات الأممين» "The Dark Side Of Christian History, Hellen Ellerb, 48" وتمادوا في ذلك، حتى أعلن الأب اليوناني البارز يوحنا ذهبي الفم بكل فخر: «أن كل أثر للفلسفة القديمة، وكل أدبيات العالم القديم اختفت من على سطح الأرض».

ظنت الكنيسة بذلك أن الأمر استتب لها، وقد كان ذلك لفترة طويلة من التاريخ تعرف بالعصور المظلمة, حتى أتت نهضة علمية, متمردة على سطوة الكنيسة على كل جوانب الحياة, هزت عرشها وحركت المياه في تلك البركة الراكدة في وسط التاريخ؛ فما كان منها إلا أن ردت بعنف أشد، يدل على حالة التوتر التي كانت تشعر بها من هذه الصحوة وهذا التمرد وهذه الحرية التي بدت تلوح في الأفق، وتصدت لمحاولات نشر العلم، حتى أنها أعلنت في «مجمع كونستانس عام 1415 ويكليف مهرطقا، و أصدر مرسومًا يقضي بحرق كتابه وبأن تستخرج جثته، وبالفعل قام البابا مارتين الخامس باستخراج رفاته عام 1428 و أحرقها وألقى برماده في النهر» "The life of John Wickliff, P.F. Tytler, 186" إثر قيامه بترجمة الكتاب المقدس من اللاتينية إلى الإنجليزية؛ وتكرر الأمر مع ويليام تندل؛ حيث «سجنته الكنيسة لمدة عام، ثم أحرقته مثبتًا على الخازوق عام 1536» "The New Schaff-Herzog Encyclopedia of Religious Knowledge, Vol. XII, Tyndale, William" "لترجمته الكتاب المقدس للإنجليزية من الأصول اليونانية والعبرية"!

وتمادت الكنيسة في ذلك الأمر إلى أن كتب جون فوكس كتابًا بعنوان (Actes and Monuments) أو كتاب الشهداء, باللاتينية، وصدرت الطبعة الإنجليزية منه عام 1563، عدّد فيه الشهداء البروتستانت الذين قامت الكنيسة الكاثوليكية بتعذيبهم وبحرقهم، فيما يقرب من ألفي صفحة، ويبدو أن هذه الرؤية الشديدة العنصرية للآخر -وإن كان مسيحيًّا- كانت مترسخة بشدة في الكنيسة، لدرجة لا تترك في نفوسهم أيّ ألم لما يقترفونه من جرائم، حتى إنه قد كتب البابا غريغوريوس الثالث عشر, بعد مذبحة تعرف بمذبحة عيد القديس بارثولوميوس، تم فيها ذبح عشرة آلاف بروتستانتي في فرنسا: «نحتفل معكم بأنك بفضل الرب طهرت العالم من هؤلاء الهراطقة الحقراء» "The Dark Side Of Christian History, Hellen Ellerb, 95"

كل تلك الفترة لم يكن الإلحاد قد برز كظاهرة لها تأثير إجتماعي وتاريخي ولاهوتي، ولم يكن كذلك حتى بداية القرن الثامن عشر, بالرغم من أن جذوره ترجع إلى قبل ذلك بكثير.

فبعد استقرار اليهود في هولاندا، وبعد أن عانوا من كل أنواع الاضطهاد والعذاب, برز بينهم شاب شديد الذكاء اسمه سبينوزا, إلا أن ذكاءه قاده إلى تشككات في وجود الله والملائكة, وبالرغم من أن اليهود لم يريدوا أن يمارسوا نفس القمع الفكري الذي مورس معهم من قبل الصليبيين بعد احتلالهم لأسبانيا, إلا أنهم اضطروا لإستدعائه «أمام كبار رجال الكنيس اليهودي عام 1656، بتهمة الهرطقة أو الضلال الديني؛ حيث سألوه: هل صحيح أنك قلت لأصدقائك إن لله جسد وهو عالم المادة, وأن الملائكة خلط وهذيان, وأن النفس قد تكون مجرد الحياة, وأن التوراة القديمة لم تذكر شيئا عن الخلود» "Story of Philosophy, Will Durant,"

ويقول ويل ديورانت: «لا نعرف ماذا أجابهم, لكن كل ما نعرفه أنهم عرضوا عليه 500 دولار سنويًّا, إذا قبل أن يبدي ولاء ولو ظاهريًّا لمعبده وإيمانه, ونعرف أيضًا أنه رفض العرض, وأنه في 27 يوليو 1656 تم حرمه بطقس يهودي رسمي كئيب» "المرجع السابق"

والسبب وراء عرضهم هذا هو اصطدام آراء سبينوزا مع العقيدة المسيحية، بنفس قوة اصطدامها بالعقيدة اليهودية, ولم يكن اليهود يريدون استرجاع اضطراب العلاقات بينهم وبين الكنيسة, وهو ما أدى بهم في النهاية إلى نفيه ولعنه و حرم كتاباته, وقد راسله في منفاه أحد تلاميذه السابقين الذي كان قد اعتنق الكاثوليكية, في رسالة تبين رؤية الكاثوليك في ذلك الوقت لمثل هذه الآراء الإلحادية؛ حيث قال فيها: «لقد زعمت أنك أخيرًا وصلت للفلسفة الحقة، كيف عرفت أن فلسفتك أفضل الفلسفات بين تلك التي درست في الماضي والتي تدرس حاليا والتي سوف تدرس في المستقبل؟ دعنا لا نتحدث عما سيحدث في المستقبل, فهل قمت باختبار كل الفلسفات القديمة والحديثة التي درست وتدرس هنا وفي الهند وفي كل مكان آخر في العالم؟ ولنفترض أنك فعلت ذلك على الوجه الأمثل, فكيف لك أن تعرف أنك اخترت أفضله؟ ... كيف تجرأت على وضع نفسك مكان كل هؤلاء البطارقة والأنبياء والرسل والشهداء والعلماء وكهنة الكنيسة؟ أيها الإنسان البائس الدودة, أنت يا مجرد رماد وطعام للديدان، كيف يمكنك أن تواجه الحكمة الأبدية بهرطقاتك التي لا يمكنني النطق بها؟ ما هي الأسس التي بنيت عليها عقائدك المتهورة, المجنونة, البائسة، والملعونة؟ أي كبرياء شيطاني جرأك على الحكم على أسرار حتى الكاثوليك أنفسهم صرحوا بأنها غير مفهومة؟»

ومع أخذ الإلحاد في الانتشار، بدأت الكنيسة في التعامل معه بشكل رسمي، وكان بداية ذلك في أول منشور كنسي رسمي (إنسيكليكال) يتعرض للإلحاد، أصدره البابا ليو الثالث عشر، وكان عنوانه: عن شرور المجتمع (Instrucatbili Dei Consilio) ، وصف فيه الإلحاد «بالطاعون المميت الذي أصاب البشرية في أعماقها»، وكما يقول Stephen Bullivant فقد «حددت تلك الوثيقة اللغة البابوية في التعامل مع الإلحاد لمدة ثمانية عقود كاملة» "The Salvation of Atheists and Catholic Dogmatic Theology, 43"

وهو ما نلاحظه في المنشور البابوي الصادر عام 1956 للبابا بيوس السادس عشر، وكان عنوانه: فتستقون مياهًا (HAURIETIS AQUAS)، استمر فيه الهجوم على الإلحاد بنفس الأسلوب قائلًا: «كما يعلم الجميع فإن الأخلاق المسيحية اليوم ملوثة بسفسطة هؤلاء الذين لا يبالون بأي دين، والذين بتركهم كل فرق بين ما هو حق وما هو باطل، على مستوى الفكر والممارسة، يقبلون حتى أسوأ وأحط أنواع الفساد الإلحادي المادي، أو ما يسمونه بالعلمانية».
وبدأت الكنيسة بعد ذلك في الشكوى من توغل الإلحاد وانتشاره مقابل تراجع دورها، في منشور رسمي آخر الثاني عشر عام 1958 بعنوان: عن الصلاة للكنيسة المضطهدة (MEMINISSE IUVAT) أصدره البابا بيوس الثاني عشر، و قال فيه: إن «المدارس التي كانت في الماضي تحت إشراف الكاثوليك أصبحت الآن مغلقة، وحل محلها مدارس إما أنها لا تذكر شيئًا عن الله والدين، أو -وهو الأكثر شيوعًا- أنها تعلم وتنشر المبادئ الإلحادية القاتلة».



وبالرغم من هروب السلطة من تحت سيطرة الكنيسة، وتراجعها خطوات إلى الخلف مقابل تقدم العلمانية والإلحاد، إلا أن موقفها ظل ثابتًا إلى حد كبير؛ لكن ذلك لم يدُم طويلًا؛ فإن «بداية الثورة الإعلامية، أدت إلى زيادة السفر والهجرة، وإلى رفع الموانع القانونية عن الزواج بين مختلف الطوائف، وبالطبع إلى زيادة متصاعدة في موجة عدم الإيمان، كل ذلك أدى إلى مواجهة وجودية للكاثوليك مع أشخاص محترمة لا يؤمنون بنفس إيمانهم؛ لتسهيل الموضوع ، فإن عبارة "لا خلاص خارج الكنيسة" كانت عبارة عامة، لكن ماذا عند تطبيقها على الزملاء، الجيران، وحتى الأقارب؟في ضوء هذا الموقف الجديد، مع رفضهم لتبني نفس العقيدة التقليدية القائلة بضرورة الكنيسة من أجل الخلاص، قام العديد من اللاهوتيين بالبحث عن فَهم جديد، فهمٍ يتوافق مع هذا الواقع الجديد لغير كاثوليكيين»" المرجع السابق، 46"

وبالفعل قد كان لذلك أثرٌ على لغة الكنيسة في التعامل مع الإلحاد، ففي عام 1964 صدقت الكنيسة على البند 16 من دستور (LUMEN GENTIUM) الكنسي عن الخلاص للملحدين حيث جاء فيه: «أولئك الذين دون خطأ منهم يجهلون إنجيل المسيح وكنيسته، إنما يفتشون عن الله بنيَّة صادقة، ويجتهدون في أن يكملوا بأعمالهم إرادته، التي تُعرَف لديهم من خلال أوامر ضميرهم، هم أيضًا يبلغون الى الخلاص الأبدي»، و بعده بعام واحد منشور: فرح ورجاء (GAUDIUM ET SPES) في البنود من 19 إلى 21 أبدت الكنيسة رؤية تعاطفية مع أسباب ظهور الإلحاد؛ حيث أقرت بأن «المؤمنين يحملون جزءًا كبيرًا في صعود موجة الإلحاد، ودعت أتباعها إلى حوار جدي ومخلص حول ذلك الأمر»، وفي البند 22 تم التأكيد بوضوح شديد على شمول خلاص المسيح لكل الناس.

ولا شك أن هذا الأمر كان تحولًا كبيرًا في عقيدة الكنيسة الكاثوليكية فيما يتعلق بهذا الموضوع, أدى إلى أن رفضه بعض اللاهوتيين، عرفوا فيما بعد بالتقليديين، على رأسهم ليونارد فيني (Leonard Feeney)؛ حيث قالوا إن الكنيسة بذلك قد خالفت عقيدة الآباء، وإنها ناقضت تعاليمها القديمة، وإنها بذلك تناقض أيضًا مفهوم عصمة الكنيسة.

وربما يلخص لنا الأمر كله جارودي في عنوان كتابه "من اللعن إلى الحوار (كان عنوانًا لكتابه: من اللعن إلى الحوار, تحدي التعاون المسيحي المركسي)، فبالرغم من أن تلك العبارة تبسط الموضوع بشكل شديد, إلا أنها وبلا شك تصور تغير توجه اللاهوتيين الكاثوليك نحو الإلحاد بشكل جيد جدًا.

وبعد رصد ذلك التحول الهائل، لا يصير مستغربًا تصريح البابا الأخير، الذي قدّم فيه تنازلًا أكبر أمام ضغوط المجتمع العلماني, معلنًا أن الملحد سينول خلاص المسيح إن كان يعمل أعمالًا صالحة. وإن كانت تصريحاته أثارت جدلًا في الكنيسة نفسها، حتى إن متحدثًا للفاتيكان خرج وحاول إعادة تفسير كلام البابا بمعنى آخر, إلا أن تصريحاته بلا شك تبدأ مرحلة جديدة من مواقف الكنيسة المتغيرة مع الإلحاد ومع تنازلاتها العقدية المتدرجة, ولعل أفضل ما يفسر لنا مواقف الكنيسة هو ذلك الحوار الذي دار بين فولتير والبابا بنديكت الرابع عشر, وهو ما يلخص المشهد كله:

«فولتير: فلنسلم بكل هذا، فكيف نجيز تلك المجموعة الضخمة من السخافات التي أضيفت إلى مذهب الكنيسة قرنًا بعد قرن؟

بنديكت: أنا أعلم أن هناك سخافات كثيرة وأشياء كثيرة لا تصدق، ولكن الناس كانوا يتصايحون من أجلها، وفي كثير من الأحيان نجد الكنيسة في تقبلها لهذه الأعاجيب كانت تخضع للمطلب العام» "The Story of Civiliza-tion, Will Durant"

ورقات في الإفتاء والوفاق والخلاف والترخص

عمرو بسيوني

تلك ورقات وضعتها في شيء من أدب الفتوى، سيما ما يتعلق بالوفاق والخلاف في الفقه، وموقف المفتي منه، في ألفاظ قليلة، من غير طول عرض ومناقشة واستدلال -وإن حرصت فيها على نقل زُبد من نقول كبار أهل العلم المحققين المجتهدين؛ للدلالة عليها، ولتكون قواعد جامعة مختصرة محفوظة متداولة-؛ لينتفع بها طلاب العلم، والمتصدرون لهذا الشأن، فتتدارس وتناقش وتشرح وتحفظ معاقدها.

*فضل العلم من آكد الأفضال في الكتاب والسنة، ومنزلة العلماء استفاضت بها النصوص الشرعية، وعن سلف الأمة وخلفها، ومما يتفرع على تلك المنزلة: مقام الفتوى، وهو مقام جليل عظيم، وتوقيع للأحكام عن الله ورسوله، قال تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: 7]، وقال عز وجل: ﴿ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: 59]، وقال عز من قائل: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾[النساء: 83]، وقال جل جلاله: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: 122]

*والمسائل الشرعية لا تخلو أن تكون مسائل متفقا عليها ، أو مختلفا فيها .

*فالمجمع عليه إجماعًا صحيحًا لا خلاف فيه في عصر الصحابة=حجة، لا يجوز القول بخلافه.

*وإذا اتفق الصحابة على حكم، ثم حدث خلاف بين المتأخرين فيه =فلا شك أن هذا الخلاف غير سائغ، وغير صحيح؛ لأنه يفضي لاتفاق السلف على الباطل.

قال شيخ الإسلام:«وإذا ذكروا نزاع المتأخرين لم يكن بمجرد ذلك أن يجعل هذه من مسائل الاجتهاد التي يكون كل قول من تلك الأقوال سائغًا لم يخالف إجماعًا؛ لأن كثيرًا من أصول المتأخرين محدث مبتدع في الإسلام مسبوق بإجماع السلف على خلافه، والنزاع الحادث بعد إجماع السلف خطأ قطعًا»، ووفقًا لما سبق فإن: «علماء المسلمين إذا تنازعوا في مسألة على قولين لم يكن لمن بعدهم إحداث قول ثالث، بل القول الثالث يكون مخالفًا لإجماعهم».

فعلم من ذلك وجوب القول بمسائل الإجماع، وعدم الخروج عن إجماع السلف عمومًا في الوفاق والخلاف.

*ومع كونه مجمعًا عليه إلا أنه لا يخلو من نص استندت إليه الأمة في ذلك الإجماع، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:«ولا يوجد مسألة يتفق الإجماع عليها إلا وفيها نص»، وقال: «ما من حكم اجتمعت الأمة عليه إلا وقد دل عليه النص؛ فالإجماع دليل على نص موجود معلوم عند الأئمة ليس مما درس علمه».

*وإن اختلف الصحابة فمن بعدهم على قولينواستقرَّ =لم يُلْغ اتفاقُ مَن بعدهم وجودَ الخلاف القديم.

*والإجماع: قطعي وظني، وكله إما استقرائي، أو إقراري (سكوتي)، فمتى قطع المجتهد بعدم المخالف -كما في المعلوم الضروري وكثير من معاقد الاتفاق وقواعد الدين= كان قطعيًا لم يجز له مخالفته، ومتى لم يقطع كان ظنيًّا.

*والإجماع الظني حجة، لا يخالفها بمجرد الاحتمال؛ بل ينبغي للمجتهد كي يخالفه أن يخالفه بدليل ظني أقوى منه، فيتعارض الظنان عنده، ويرجح بينهما أقواهما، وإلا توقف.

*والخلاف بعد علماء الصحابة قد استشرى واتسع، وكثر علماء الأمة في كل البلاد والأصقاع، من علمنا منهم ومن لم نعلم، لذا فأصح الإجماعات هو إجماع الصحابة لأنه هو الذي يكثر ضبطه ويمكن، قال شيخ الإسلام: «الْإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ: هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ «السَّلَفُ الصَّالِحُ»؛ إذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الِاخْتِلَافُ، وَانْتَشَرَتِ الْأُمَّةُ»، وقال: «بِخِلَافِ السَّلَفِ فَإِنَّهُ يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِإِجْمَاعِهِمْ كَثِيرًا».

*ثم الخلاف الذي يكون في مسائل الأحكام نوعان، خلاف سائغ، وخلاف غير سائغ.



*فالخلاف السائغ هو الخلاف الذي لا يخالف نصًّا -لا احتمال معتبرًا فيه، ولا معارض له- أو إجماعًا قديمًا صحيحًا.

*والخلاف غير السائغ ما كان مخالفًا للنص، أو الإجماع القديم. وهو محرم ، قال الشافعي: «الاختلاف من وجهين: أحدهما محرم،ولا أقول ذلك في الآخر».

*هل للمفتي المخالف لقول مفت آخر وهو قول سائغ أن يردّ عليه، أو ينكر عليه؟

قال شيخ الإسلام: «وقولهم مسائل الخلاف لا إنكار فيها ليس بصحيح، فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول بالحكم أو العمل. أمّا الأول فإذا كان القول يخالف سنة أو إجماعًا قديمًا=وجب إنكاره وفاقًا. وإن لم يكن كذلك فإنه يُنكر بمعنى بيان ضعفه عند من يقول المصيب واحد، وهم عامة السلف والفقهاء.

وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع وجب إنكاره أيضًا، بحسب درجات الإنكار.أما إذا لم يكن في المسألة سنة ولا إجماع وللاجتهاد فيها مساغ =لم ينكر على من عمل بها مجتهدًا أو مقلدًا».

*ولكن لا يلزم من ذلك تأثيمهم، ولا تفسيقهم-وذلك مطرد حتى في الخلاف غير السائغ إن كان صاحبه مجتهدًا بعلم وعدل باستدلال سائغ- قال الإمام الشاطبي: «كما أنه لا ينبغي أن ينسب صاحبها إلى التقصير، ولا أن يشنع عليه بها، ولا ينتقص من أجلها، أو يعتقد فيه الإقدام على المخالفة بحتًا؛ فإن هذا كله خلاف ما تقتضي رتبته في الدين».

وأفتى الشيخ العثيمين في مسألة خلافية، أفتى السائلَ فيها مفت بخلاف ما يراه الشيخ؛ فقال في ختامها: «ما دمت مستندًا إلى فتوى عالم ليس بعامي من هؤلاء العوام فلا إثم عليك؛ لكن لتعلم أن هذه الفتوى غلط، فما أخذته بناءً على الفتوى فهو حلال، لكن في المستقبل من الآن انقطع، قدم استقالة».

*أما المفتي فإنه إذا أفتى في المسائل الخلافية السائغة فإنه لا يسعه إلا أن يخبر بما يعتقد هو صحته عند الله، لا مجرد أن يسرد الخلاف، دون توجيه وترجيح.

قال الإمام ابن الصلاح: «إذا اقتصر في جوابه على حكاية الخلاف بأن قال: فيها قولان أو وجهان، أو نحو ذلك من غير أن يبين الأرجح، فحاصل أمره أنه لم يفتِ بشيء».

وقال ابن القيم: «فإذا عرض العامي نازلته على المفتي، فهو قائل له: أخرجني عن هواي ودلني على اتباع الحق، فلا يمكن والحال هذه أن يقول له: في مسألتك قولان فاختر لشهوتك أيهما شئت».

وقال الإمام أبو بكر القفال المروزي -وهو من أئمة الشافعية الكبار من أصحاب الوجوه- : «لو اجتهدت فأدى اجتهادي إلى مذهب أبي حنيفة، فأقول: مذهب الشافعي كذا وكذا، ولكني أقول بمذهب أبي حنيفة، لأنه جاء ليستفتي على مذهب الشافعي، فلا بد من أن أعرفه بأني أفتي بغيره».

*ولا يكفي أن يفتي بالفتوى لمجرد أنها محفوظة لشيخ أو إمام، دون نظر منه واجتهاد -إلا إن عجز أو ضاق الوقت- بل لا بد من نظر منه للمسألة وأدلتها، يفضي إلى قطع، أو غلبة ظن.

قال الإمام ابن الصلاح: «واعلم أن من يكتفي بأن يكون في فتياه أو عمله موافقًا لقول أو وجه في المسألة، ويعمل بما يشاء من الأقوال أو الوجوه من غير نظر في الترجيح، ولا تقيدٍ به =فقد جهل وخرق الإجماع».

وقال شيخ الإسلام: «أجمع العلماء على تحريم الحكم والفتيا بالهوى، وبقول أو وجه من غير نظر في الترجيح».

قال الامام الشاطبي:«ووقع فيما تقدم وتأخر من الزمان الاعتماد فى جواز الفعل على كونه مختلفًا فيه بين أهل العلم، لا بمعنى مراعاة الخلاف؛ فإن له نظرًا آخر، بل فى غير ذلك، فربما وقع الإفتاء فى المسألة بالمنع؛ فيقال: لم تمنع والمسألة مختلف فيها، فيجعل الخلاف حجة فى الجواز لمجرد كونها مختلفًا فيها، لا لدليل يدل على صحة مذهب الجواز، ولا لتقليد من هو أولى بالتقليد من القائل بالمنع، وهو عين الخطأ على الشريعة؛ حيث جعل ما ليس بمعتمد متعمدًا وما ليس بحجة حجة».

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «لا يجوز للمفتي أن يعمل بما شاء من الأقوال والوجوه من غير نظر في الترجيح ولايَعْتَد به، بل يكتفى في العمل بمجرد كون ذلك قولًا قاله إمام أو وجهًا ذهب إليه جماعة فيعمل بما يشاء من الوجوه والأقوال حيث رأي القول وَفْقَ إرادته وغرضه عمل به، فإرادته وغرضه هو المعيار وبها الترجيح، وهذا حرام باتفاق الأمة .

وبالجملة فلا يجوز العمل والإفتاء في دين الله بالتّشَهّي والتخير وموافقة الغرض؛ فيطلب القول الذي يوافق غرضه وغرضَ مَنْ يُحابيه فيعمل به، ويفتي به، ويحكم به، ويحكم على عدوه ويفتيه بضده، وهذا من أفسق الفسوق وأكبر الكبائر، والله المستعان».

وفي ذلك يقول الإمام القرافي: «لا ينبغي للمفتي إذا كان في المسألة قولان: أحدهما فيه تشديد والآخر فيه تخفيف، أن يفتي العامة بالتشديد والخواص من ولاة الأمور بالتخفيف، وذلك قريب من الفسوق والخيانة في الدين والتلاعب بالمسلمين، ودليل على فراغ القلب من تعظيم الله تعالى وإجلاله وتقواه، وعمارته باللعب وحب الرياسة والتقرب إلى الخلق دون الخالق، نعوذ بالله من صفات الغافل».

*وذلك داخل في تتبع الرخص، وهو محرم.

قال الإمام أحمد: «لو أن رجلًا عمل بكل رخصه؛ بقول أهل الكوفة في النبيذ، وأهل المدينة في السماع، وأهل مكة في المتعة =كان فاسقًا».

وقال الإمام ابن عبد البر: «لا يجوز للعامي تتبع الرخص إجماعًا».

ويروى عن إسماعيل القاضي أنه قال: «دخلت على المعتضد فدفع إليّ كتابًا، فنظرت فيه وقد جمع فيه الرخص من زلل العلماء وما احتج به كل منهم، فقلت: مصنف هذا زنديق. فقال: لم تصح هذه الأحاديث؟ قلت: الأحاديث على ما رويت؛ ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح المسكر، وما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء، ثم أخذ بها ذهب دينه، فأمر المعتضد بإحراق ذلك الكتاب».

ويقول الإمام الزركشي في ذلك: «وفي فتاوي النووي الجزم بأنه لا يجوز تتبع الرخص، وقال في فتاوٍله أخرى؛ وقد سئل عن مقلد مذهب: هل يجوز له أن يقلد غير مذهبه في رخصة لضرورة ونحوها؟ أجاب: يجوز له أن يعمل بفتوى من يصلح للإفتاء إذا سأله اتفاقًا، من غير تلقّط الرخص، ولا تعمد سؤال من يعلم أن مذهبه الترخيص في ذلك».

وقال الشيخ العثيمين في كلام له عن المستفتي وما يلزمه: «أن يريد باستفتائه الحق والعمل به، لا تتبع الرخص وإفحام المفتي، وغير ذلك من المقاصد السيئة».



الفلسفة

أحمد سالم

الفلسفة هي أم العلوم الإنسانية، وظلت إلى القرن الثامن عشر تحمل وحدها راية الكلام في الأخلاق والوجود والمعرفة والعلوم الطبيعية وما يتعلق بالإنسان ومشكلاته الفردية والمجتمعية، ثم بدأ كل ذلك يتناسل منها حتى صارت الفلسفة تخوض معركة وجود وبحث عن وظيفة.

لكن تظل الفلسفة سواء من جهة عملها في التاريخ أو من جهة وجودها في الواقع الحالي أحد أهم المكونات لثقافة العصر، ومن هنا كان الاطلاع على طرف منها مهمًا لطالب الثقافة المتكاملة، وسأحاول في السطور القادمة بيان شيء من مفاتيح الاطلاع على الدرس الفلسفي.

(1)

يمكن النظر إلى الفلسفة والاشتغال بالدرس الفلسفي من ثلاث زوايا:

الزاوية الأولى: أنها استقلال الإنسان بعملية البحث عن أسئلة المعرفة والوجود والأخلاق، بحيث لا يأخذ أجوبته من الوحي، والفلسفة حينها تكون مقابلة للنبوة ويكون الفيلسوف مقابلًا للنبي ومقابلًا أيضًا لمن يجعل الوحي مصدرًا للمعرفة كالفقيه والمتكلم، والحقيقة أن هذا هو المعنى التقني للفلسفة، وكل فلسفة جعلت الوحي بصورته المرجعية الملزمة مكونًا لها فحقيقتها أنها كلام وليست فلسفة.

والاعتناء بالدرس الفلسفي -إذا نظرنا للفلسفة من هذه الزاوية- سيكون غرضه الخاص بالإضافة للأغراض العامة للثقافة المتكاملة: **هو البصيرة بأصناف الباطل المتشعبة في العلوم والأديان.**

فإن الفلسفة هي الميدان الأساسي لإنتاج الأفكار التي يراد لها أن تناوئ مفاهيم الوحي، وهي حين تعجز عن المناوءة أو حين يقبلها من لا يبغي بها المناوءة =فإنها تختلط بمفاهيم الوحي وتحرف شيئًا منها عن مراد الله منه، ولا يعود الفقيه بالوحي يبصر مفاهيم الدين الأول وحالتها التي كانت عليها قبل أن تحل بها المفاهيم الفلسفية، ومن لم يفقه الباطل =دخل حماه غافلًا في إزار من الحق مشتبه.

الزاوية الثانية: النظر إلى الفلسفة من حيث احتواؤها على آلة لإنشاء المفاهيم وصياغة الأفكار ونحت الاستدلالات، سواء بمكوناتها المنطقية أو من جهة النظر للدرس الفلسفي باعتباره تدريبًا على عملية التفكر العقلاني المنظم.

ويمكن الانتفاع حينها بالدراسة الفلسفية من هذه الناحية خاصة مع انتشار عيوب التفكير والاستدلال في الناس، لكن مما تجدر الإشارة إليه هاهنا: **أن هذا الغرض يمكن تحصيله من غير طريق القراءة الفلسفية الموسعة؛ حيث يمكن الاكتفاء فيه بالكتب الخاصة بالمنطق والتفكير والحجاج، بالإضافة للاشتغال بعلم أصول الفقه في صورته التراثية.**

الزاوية الثالثة: النظر للفلسفة من حيث يؤدي الاشتغال بها إلى البحث عن إجابات الوحي عن الأسئلة التي تثيرها الفلسفي، وهو ما يسميه سلطان العميري: "المخزون الفلسفي في الإسلام"، وبالتالي تستعمل الفلسفة هاهنا كمثير خارجي لفتح آفاق الذهن للتنقيب عن أبواب من الوحي والدين، لم يكن ليُنتبه لها الباحث لولا مناوءة الباطل الفلسفي لها.

وتبقى الإشارة: إلى أن كل هذه الغايات الحسنة للدرس الفلسفي ينبغي أن توزن بخطر الدرس الفلسفي وما يمكن أن يؤدي إليه من مضلات عن الدين الأول، خاصة مع ضعف العلم بالوحي، وفقر المعرفة بالمخزون التراثي ، وهو نفس الطريق الذي ضل منه أذكياء المتكلمين الإسلاميين، ولا يمكن الاتكاء هاهنا على محاولة تأجيل الاطلاع على الدرس الفلسفي لحين التمكن من الآلة التراثية إلا لمن كان معزولًا عن نوافذ الشبهات، والأفضل لعموم المشتغلين بالثقافة هو الاطلاع المتوازي مع أناة النفس عن العجلة للسكون للآراء والأقوال، ومفتاح ذلك أن يكون طالب الثقافة في بنائه لمنهجه في التفكير ذا أناة وصبر، وألا يتعجل وأن ينتظر اكتمال منهجه في التفكير وأدواته في النظر، وإلى أن يستوي هذا المنهج ينبغي عليه ألا يستعجل الاقتناع بالأفكار، وأن يقف منها دائمًا موقف القاضي الذي يؤجل القضية لمزيد من الاطلاع.

والحقيقة أنه لا يوجد حل سحري لهذه الإشكالية؛ فإن بعض من ضل من المتكلمين كان عنده من العلم بالدين ما يفوق الرتبة التي يمكن أن يأذن بها المتحفظ لدارس الفلسفة، والمسألة تعتمد بدرجة كبيرة على هداية الله للإنسان وعلى مدى امتلاء قلبه بالإيمان والفقه بالوحي والدين الأول، وعلى مدى أناته وصبره وعدم عجلته للتسليم بالآراء التي تعرض عليه، وعلى سياساته في التعامل مع الشبهات؛ هل يتشربها؟ أم يبقيها عنده في برزخ لا يبغي ما فيه على قلبه فيفسده؟

لذلك فإن الاطلاع على شيء يسير من الدرس الفلسفي يكفي طالب الثقافة المتكاملة، ولتتوازى إرادته التوسع مع توسعه في أبواب التفسير والحديث وكلام فقهاء أهل السنة وعلمائهم، وليسأل الله الهداية والتوفيق والسلامة من الفتن.

ولم يعد منهج الحمية التامة والعزلة يصلح للمشتغلين بالعلم والدعوة والمنغمسين في الشأن العام؛ إذ إن الضلالة لم تعد تكتفي بالسكون داخل صفحات الكتب؛ بل صارت تطل عليك من نوافذ شتى، فلم نعد نتكلم عن جرثومة في طعام يسهل الانتهاء عنه، وإنما صرنا نتكلم عن هواء ملوث يعسر التوقي منه.

لذلك يبقى الحل الأقرب للفعالية هو أن يضطلع الباحثون المتقنون من أهل السنة بالكتابة النقدية في الدرس الفلسفي؛ بحيث تحصل مصلحة الاطلاع على تفاصيل هذا الدرس في إطار من النقد المبرز لأخطائه وضلالاته.

وقد تجاوزت هاهنا مناقشة الأقوال التي يوردها بعضهم يحذر فيها من العلوم الفلسفية وينهى عن النظر فيها بإطلاق؛ فإن هذا النهي يصلح في حالتين:

الأولى: قوة السنة وانقماع الضلالة وانحسارها؛ كما كان ذلك أول الإسلام.

الثاني: أن يكون ذلك خطابًا للعامة وأشباههم.



أما طلبة العلم والمشتغلون بالشأن العام وأهل الاطلاع الثقافي من المسلمين =فإن نهيهم عن هذا ضعيف الجدوى قليل الأثر، كما أنه يشبه الاستغناء عن الجهاز المناعي بالحجر الصحي؛ فإن الحجر لا يدوم ولا يمكن أن يدوم، وإنه معرض للزوال في أي لحظة، ثم هو حين يزول يدع هذا الذي حجرت عليه عاري المناعة أمام جحافل الضلالات تغزوه ولا يستطيع لها دفعًا.

يقول شيخ الإسلام: "ونحن -ولله الحمد- قد تبين لنا بيانًا لا يحتمل النقيض فساد الحجج المعروفة للفلاسفة والجهمية والقدرية ونحوهم التي يعارضون بها كتاب الله، وعلمنا بالعقل الصريح فساد أعظم ما يعتمدون عليه من ذلك وهذا -ولله الحمد- مما زادنا الله به هدى وإيمانًا؛ فإن فساد المعارض مما يؤيد معرفة الحق ويقويه، وكل من كان أعرف بفساد الباطل كان أعرف بصحة الحق، ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: إنما تُنقض عُرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية. وهذا حال كثير ممن نشأ في عافية الإسلام وما عرف ما يعارضه ليتبين له فساده؛ فإنه لا يكون في قلبه من تعظيم الإسلام مثل ما في قلب من عرف الضدين".

قلت: وهذا حسن جدًّا، وجدير أن يلتفت له أهل الحق، مع إقرارنا بخطره، ولكن هذا الباب من جنس الجهاد، ولو كان الجهاد يترك لخطره وعوارضه =لما رفعت راية للحق.
ولكن الشأن: في الطريق والكفاية.

أما الطريق فقد أشرت إليه من قبل أن يسير هذا بتوازٍ مع الاشتغال التراثي والاطلاع على الوحي وتفسيره وكتابات أهل السنة، مع حض المتقنين من الباحثين على الكتابات النقدية في الدرس الفلسفي، وقد ذر قرن هذا النوع من الكتابات بالفعل فيما يكتبه أخونا سلطان العميري، وبعض كتابات الطيب بو عزة، ومن قبله طه عبد الرحمن، وعبد الوهاب المسيري، مع وجود مواطن اختلاف بين ما يكتبونه وما نريده.

وأما الكفاية: فهي بقدر الحاجة؛ فلا يدخل الإنسان هذا الطريق فقيهًا ليخرج منه فيلسوفًا، وعليه فإن كثيرًا من مضامين الدرس الفلسفي لا حاجة لها ولا للتوسع فيها.

(2)

من الإشكالات المعروفة في الدرس الفلسفي، هل يقام على درس تاريخ الفلسفة عبر تطوره التاريخي واستعراض مذاهب الفلاسفة في كل عصر؟ أم يقام على بحث القضايا الفلسفية باستعراض مذاهب الفلاسفة في نظرية المعرفة، ونظرية الوجود، وفلسفات الأخلاق والسياسة والفن والجمال؟

والذي أراه كمفتاح للثقافة المتكاملة هو الجمع بين الطريقتين، بقراءة كتاب في تاريخ الفلسفة، وبعده كتاب في الفلسفة وقضاياها.

من الكتب السهلة التي أرشحها في تاريخ الفلسفة: كتاب زكي نجيب محمود "قصة الفلسفة اليونانية"، ثم كتابه: "قصة الفلسفة الحديثة"، وهذان عندي أحسن من كتاب "قصة الفلسفة" لول ديورانت، ولا يعيبهما سوى أنهما ميسران جدًّا، ويفقدان كثيرًا من اللغة التقنية للفلسفة، وبالتالي لا يؤهلان القارئ للتوسع في قراءة كتب الفلاسفة الأصلية، ولابد له إن أراد هذا أن يمر بمرحلة أخرى؛ كقراءة سلسلة يوسف كرم في تاريخ الفلسفة، وهي ثلاثة أجزاء.

أما في القضايا الفلسفية؛ فأفضل الكتب في ذلك هو كتاب: "أسس الفلسفة" للدكتور توفيق الطويل، ومن أراد التوسع بعده فعليه بكتاب "الفلسفة أنواعها ومشكلاتها" لهنتر ميد.

تبقى الإشارة لبعض الكتب لمن أراد التوسع في جانب ما من الدرس الفلسفي:

الموسوعات: أفضل الموسوعات الفلسفية هي موسوعة الفلسفة، الصادرة عن مركز الإنماء القومي في ثلاثة أجزاء، أما موسوعة عبد الرحمن بدوي فأهميتها ترجع لكونها تلخيص لمعظم كتبه.

المعاجم: أفضل المعاجم الفلسفية هو المعجم الفلسفي لجميل صليبا، والمعجم الفلسفي لمراد وهبة.

الميتافيزيقا: من أفضل المكتوب فيها كتاب الدكتور إمام عبد الفتاح إمام.

نظرية المعرفة: من المهم الاطلاع على كتاب المعرفة لعبد الله القرني، وكتاب: نظرية المعرفة لفؤاد زكريا.

الأخلاق: من المهم الاطلاع على كتاب دستور الأخلاق في القرآن لمحمد عبد الله دراز، وكتاب المذاهب الأخلاقية لعادل العوا، أو: الفلسفة الخلقية، لتوفيق الطويل.

الفلسفة المعاصرة: من الكتب المهمة فيها كتاب: فلسفات عصرنا، وكتاب: خمسون مفكرًا أساسيًّا معاصرًا لجون ليتشه.

كتابات نقدية: من المهم الاطلاع على الكتابات النقدية التالية:

الطيب بو عزة وكتاباه: سؤال النشأة، والفلسفة ما قبل السقراطية.

طه عبد الرحمن وكتبه: فقه الفلسفة، وتجديد المنهج وتقويم التراث، والحق العربي في الاختلاف الفلسفي.

عبد الوهاب المسيري وكتبه: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، والفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ودراسات معرفية في الحداثة الغربية.

سلطان العميري وكتابه: فضاءات الحرية.





وبعد..

فهذه خلاصة مركزة تحوي مفاتيح أساسية للثقافة المتكاملة، حين تريد أن تحوز إلى رحلها الفلسفة كأحد الحقول الثقافية المهمة وشديدة التأثير.



السلطان السلفي
سليمان بن محمد العلوي

عصام المغربي

إن تراجم الأعلام ليست حكيًا أدبيًّا لا طائل من ورائه ما خلا متعة لا تلبث أن تنقضي، بل هي وسيلة من الوسائل العلمية لقراءة التاريخ قراءة أقرب إلى التحرر من رقابة المؤرخ الرسمي، ولا نزعم أنها الطريقة الوحيدة لبحث أكثر موضوعية، لكنها ولا شك مما اختصت به أمة الإسلام وتميزت، وبلغت فيه من الدقة والموضوعية درجات عالية. فهي الحريصة على حديث نبيها وفهم أصحابه لسنته ومصداقية الناقلين عنهم أخباره، كان فيها منذ البداية رجال يترجمون للرجال ويعدون أشياخهم وتلاميذهم ومصنفاتهم، وينظرون في قوة حفظهم وصدقهم ومروءتهم. وتطور علم الرجال حتى صنف فيه معاجم مختصة بفنون بعينها، فكتب الطبقات أفردت للنحو والتفسير والفقه والطب وغيرها. وهذه العناية باعث فخر لمن تدبر، ونزع عن عينيه غشاوة الانبهار بالآخر وتحقير الذات، لكننا أمة ابتليت بمن يريدها عمياء عن كنوزها ومفاخرها.

ونحن اليوم نترجم لرجل يقف وراء البحث في سيرته أمر مهم، وهو تاريخ السلفية في المغرب.

وهذا المطلب تجد إذا تأملت في ما كتب عنه مدرستين متنافرتين، الأولى تزعم أن السلفية مفهوم مستورد من المشروع الوهابي، وأن أرض المغرب صوفية أشعرية أصالة. والثانية تقطع بأسبقية المعتقد السلفي وتنكر أي ارتباط بالوهابية النجدية. وأزعم أن كلا التحليلين مجانب للصواب، فالحق أن السلفية ظاهرة في دولة الملثمين، ولعل هذه الدولة التي ورثت مغربًا متشرذمًا تلاطمه موج الرافضة والخوارج وجدت في مذهب السلف سبيلًا لجمع شتات الناس على المعتقد النقي الأول الذي لم يتكدر بالأهواء. لكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن دخول الأشعرية إلى البلاد تزامن مع بناء دولة المرابطين، والقاضي أبو بكر بن العربي، تلميذ الغزالي وناشر فكره كان رجل الدولة وسفيرها إلى المشرق، ومثله القاضي عياض السبتي.

وأما الارتباط بالدولة النجدية والوهابية فمبكر، ومترجمنا له سبق في هذا التقارب، ثم إن تأثير هذه المدرسة واضح جلي لمن نظر في سيرة الشيخ محمد تقي الدين الهلالي وتأثيره على عمالقة الفكر المغربي بطريق مباشر أو غير مباشر، أذكر مثالًا علاقته بالأستاذ الكبير عبد الله كنون والزعيم علال الفاسي.

السلطان أبو الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله العلوي (1180 للهجرة 1238) وبويع سلطانًا على المغرب عام 1206، فحكم قريبًا من 32 عامًا.

ونقطع بأن سلفية مترجمنا إنما هي امتداد لسلفية والده السلطان محمد بن عبد الله العلوي ت 1204، وهذا له مصنفات في الحديث ومستخرجات كان يكتب فيها "كتبه محمد بن عبد الله المالكي مذهبًا الحنبلي اعتقادًا"، وقد بين في خاتمة كتابه (الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد) أن اعتقاد مالك وأحمد واحد؛ ولكنه انتسب لأحمد اعتقادًا لأن الحنبلية في عرف الناس هي ما يخالف علم الكلام.

وقد أعد محمد بن عبد الله العلوي ولده سليمان إعدادًا علميا ليكون رجل الدولة القوي، ورجل العلم المصلح، فكان يدرس على مشايخ ذكرهم أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني المغربي ت 1249 هـ مؤرخ المغرب وصاحب سليمان في كتاب "جمهرة التيجان وفهرسة الياقوت واللؤلؤ والمرجان في ذكر الملوك وأشياخ السلطان المولى سليمان".

السلطان المصلح:

بويع السلطان سليمان وعقد له علماء فاس والناس معهم، كما ذكر الجبرتي: "على نصرة الدين، وترك البدع والمظالم والمكوس والمحارم"، وهكذا ألغى سليمان كل المكوس واكتفى بالزكاة، لكن هذا الإصلاح الضريبي أضعف مالية بلاد مثقلة بحروب داخلية وثورات لا تكاد إحداها تخمد حتى تشتعل أخرى، وزاد هذا مع منع السلطان المسلمين المغاربة من السفر إلى أوروبا للتجارة (كان رحمه الله فقيهًا مالكيًّا متقيدًا بأن ولي الأمر يمنع المسلمين من بلاد الكفار). فاستفتى العلماءَ في فرض ضرائب على السفن النصرانية التي ترسو في المغرب، فأجابوه إلى هذا.



وانطلق الرجل في إصلاح دنيا الناس ودينهم. وهكذا تجده يأمر بترميم أسوار المدن حماية لها من قطاع الطرق، وجدد قنطرة الرصيف وقنطرة وادي سبو بفاس، وأصلح طرقات حاضرته كلها فرصفت بالحجارة، كما رصفت مخارجها. ونظم سوق الرقيق وجعل عليه محتسبًا فلا يباع فيه إلا من صحت رقيته وملكه. ونشر رحمه الله الحرس يؤمنون الطرق خارج الحواضر، وييسرون على التجار الوصول إلى الأسواق.

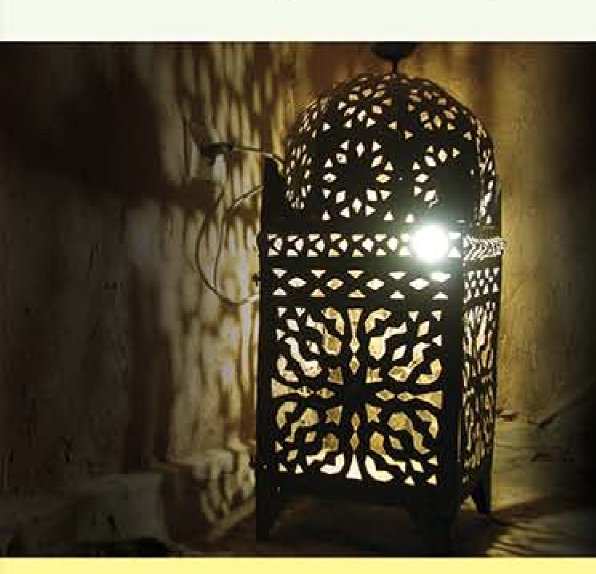
الإصلاح الديني:

ليس للإصلاح الديني عند مترجمنا نفس المعنى السائد عند المنبهرين بالاستشراق، بل هو عودة إلى السلفية النقية، واهتمام بالدين وأهله، فكان يزور جامع القرويين ويحضر دروسه، ويذاكر المشايخ، ومن عجيب ذكره أنه كان "لا يحب مجالسة من لا علم له"، وكان يحب إذا جلس إلى الفقيه أن يتكلم هذا بما في نفسه ولا يداري، وكان يزورهم في بيوتهم ويجيبهم إلى ولائمهم، فقد زار ابن الطالب الشفشاوني، وزار الشيخ التاودي بن سودة، وأما الشيخ عبد القادر بن شقرون فقد وضعه بيده في التراب ونزل قبره. وكان يحضر تفسير القرآن لشيخه ابن كيران يداوم عليه، وأمر غير واحد بالتأليف في أبواب من العلم، خاصة الحديث، فإنه كان يحبه مثل أبيه محمد بن عبد الله العلوي، بل وتصدر هو نفسه للتصنيف وله كتاب على شرح الخرشي، وله كتاب "الرد على من قال بأفضلية بني إسرائيل على العرب"، وله "حسن المقالة في تطهير النفس مما يشين الحج ويسلب كماله"، وله "تقييد في العادل والجائر من الولاة والعمال"، وله "رسالة ضد بدع الزيارة للصلحاء"، وله كتاب "عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي بن الجد (ذكر بعضهم أن الكتاب ليس للسلطان ويرى الدكتور عبد الهادي التازي أنه له، أخبرني بهذا الأستاذ نواف آل رشيد).

وأما خطبة السلطان سليمان في ترك البدع فهي حقيقة بأن تنشر بين الناس، ولولا طولها لأوردتها كاملة ولكننا نقدم للقارئ بعضها وفيها عبرة لمن نظر:

"ولهذا نرثي لغفلتكم ! أو عدم إحساسكم ! ونغار من استيلاء الشيطان بالبدع على أنواعكم وأجناسكم ! فالقوا لأمر الله آذانكم، وأيقظوا من نوم الغفلة أجفانكم، وطهّروا من دنس البدع إيمانكم، وأخلصوا الله إسراركم وإعلانكم، واعلموا أن الله بفضله أوضح لكم طرق السنة لتسلكوها، وصرح بذم اللهو والشهوات لتملكوها، وكلفكم لينظر عملكم، فاسمعوا قوله في ذلك وأطيعوا واعرفوا فضله عليكم وعوه، واتركوا عنكم بدع المواسم التي أنتم بها متلبسون! والبدع التي يزينها أهل الأهواء ويلبسون، وافترقوا أوزاعًا! وانتزعوا الأديان والأموال انتزاعًا ! فيما هو حرام كتابًا وسنة وإجماعًا! وتسموا فقراء وأحدثوا في دين الله ما استوجبوا به سقرًا!".

"ثُم أنشدكم الله هل زخرفت على عهد رسول الله المساجد؟! أو زوقت أضرحة الصحابة والتابعين؟!! إلا ما جد؟ كأني بكم تقولون هذه المواسم المذكورة وزخرفة أضرحة الصالحين وغير ذلك من أنواع الابتداع: حسبنا الإقتداء والإتباع ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: 23]، وهذه المقالة قالها الجاحدون، ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾[المؤمنون: 36] وقد رد الله مقالتهم، ووبخهم، وما أقالهم؛ فالعاقل من اقتدى بآبائه المهتدين وأهل الصلاح والدين، "خير القرون قرني..." الحديث.



"فليس في دين الله ولا فيما شرع نبي الله أن يتقرب بغناء ولا شطح، والذكر الذي أمر الله به، وحث عليه ومدح الذاكرين به= هو على الوجه الذي كان يفعله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن على طريق الجمع ورفع الأصوات على لسان واحد؛ فهذه طريقة الخلف، فمن قال بغير طريقتهم فلا يستمع، ومن سلك غير سبيلهم فلا يتبع"

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: 115] ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[يوسف: 108]

فما لكم يا عباد الله ولهذه البدع؟! أأمنًا من مكر الله؟! أم تلبيسًا على عباد الله؟! أم منابذة لمن النواصي بيده؟! أم غرورًا لمن الرجوع بعدُ إليه؟! فتوبوا واعتبروا، وغيروا المناكر واستغفروا، فقد أخذ الله بذنب المترفين من دونهم! وعاقب الجمهور لما أغضوا عن المنكر عيونهم، وساءت بالغفلة عن الله عقبى الجميع، ما بين العاصي والمداهن المطيع! أفيزين لكم الشيطان وكتاب الله بأيديكم؟ أم كيف يضلكم وسنة نبيكم تناديكم؟! فتوبوا إلى رب الأرباب، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون، ومن أراد منكم التقرب بصدقة، أو وفق لمعروف أو إطعام أو نفقة، فعلى مَن ذَكر الله في كتابه ووعدكم فيهم بجزيل ثوابه، كَذوِي الضرورة الغير الخافية والمرضى الذين لستم بأَولى منهم بالعافية؟ ففي مثل هذا تُسَد الذرائع وفيه تُمتَثل أوامر الشرائع".

السلطان سليمان والخارج

كان السلطان محمد والد مترجمنا، أول من اعترف باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، وكان له نشاط ديبلوماسي مهم خاصة مع الأوروبيين، فلما ملك سليمان أعلن سياسة الجفاء مع الغربيين، وانفتح على العثمانيين وراسلهم ووصلهم بالود ووصلوه، ووقعت في زمنه حادثة عجيبة، إذ استولى الطرابلسيون (ليبيا) على سفينة تجارية أمريكية فهاجمت سفن حربية طرابلس ومنعت عنها الغذاء، فأرس سليمان إليهم سفنًا فيها طعام، وذكره الأمريكان بالعهد مع أبيه وأنهم على السلام، فكان رد سليمان: "رابطة الدين أولى من كل رابطة".

السلطان والدعوة الوهابية

سنة 1226هـ بلغت إلى حضرة فاس رسالة عجيبة، موقعة من السعود بن عبد العزيز صاحب نجد ت1229، يبين فيها دعوته وأهدافها وعدم معارضتها للدين كما نشر وشنع عليه خصومه.

وردًّا على الرسالة، أرسل سليمان ابنه إبراهيم ومعه وفد من كبار رجال العلم في المغرب وهم: القاضي أبو إسحاق إبراهيم الزداغي، والفقيه أبو الفضل العباسي بن كيران، والفقيه الأمين بن جعفر الحسيني الرتبي، والفقيه محمد العربي الساحلي، وجرت بين الوفد المغربي والنجديين محاورة شهيرة تجدها في كتاب الاستقصا للناصري، وفي الجملة فقد عاد المغاربة وهم يرون دعوة الوهابيين سلفية ليس فيها ما يشين، والظاهر أن خطبته التي نقلنا بعضها أعلاه إنما كتبها بعد رجوع سفرائه من الحج، وهذا عظيم الدلالة كما ترى.

ونختم بأمر نادر في الملوك، فمترجمنا كان يعد ولده إبراهيم، سفيره إلى نجد، بعده، وكان صالحًا عالمًا خيرًا، فمات في حياته، فلما نخل السلطان ولده لم يجد فيهم من هو أهل للملك، فقدم ابن أخيه عبد الرحمن بن هشام.



إيمان قلب

خالد بهاء الدين الأزهري

أحمد الله جلّ وعزّ، وأسبّحُ بحمدِه، وأصلّي، وأسلِّم على نبيّه وعبدِه، وآلِه وصحبِه مِن بعدِه، وبعد؛

فأهل السنة مجمعون على أنّ الإيمانَ، والدين، والإسلام؛ قولٌ وعمل، وأن القولَ قولان، والعملَ عملان، فالقولان: للقلب واللسان، والعملان: للقلب والجوارح. ومنه يُعلم أنَّ نصيبَ القلب من الإيمان : قول، وعمل، كنصيب الجوارح سواء بسواء.

والإيمان، هو المعروف، وهما الدين، وهي الإسلام، وكلّها هي العبادة!

كلُّ هذه الألفاظ مترادفة، فهي أسماء جامعة لكلّ ما يحبه الله ويرضاه، مما يتعلّق بالظاهر أو الباطن، وإنك لا تكاد تجد فروقًا مؤثرة بينها، ويعسُر عليك تطلّبُ تباينٍ واضحٍ بين معانيها، إلا حال سوقها في سياق واحد، فحينئذ؛ قد يدل سياقها على تخالف بين معانيها، يُعرف بالتتبع والاستقراء للنصوص، أو كلام السلف، والأئمة.

لكنِ المقصودُ: أنَّ القلبَ يتحدّث، ويُحدِّث بالإيمانِ، والمعروفِ، والإسلامِ، والدينِ الحقّ، والعبادةِ، أو نقيضِ ذلك، أو عدمِه، وأنَّ القلبَ يعملُ، ويفعلُ، وينفعلُ بالإيمانِ، والمعروفِ، والإسلامِ، والدّين الحقِّ، والعبادةِ، أو نقيضِها أو عدمِها!

وهذا كما أنَّ الجوارحَ تتحدّث، وتُحدِّث بالإيمان، وتعملُ، وتفعلُ الإيمانَ وتنفعل به، أو بنقيضه، سواء بسواء!

وقولُ القلب، الذي هو: علمُه، ومعرفتُه، وتصديقُه، بالله، ورسوله، وشرعه، وعملُ القلب، الذي هو: انفعالٌ لازمٌ لما صَدّق به القلبُ، وعَلِمَه، وعرَفَه؛ هما معًا إيمانُ القلب، وعبادتُه، ومعروفُه، وإسلامُه.

ومعلومٌ أنّ عملَ القلب، وانفعالَه؛ من لوازم قولِه، وما يحدِّثُ به؛ فقول القلب يتبعه: عمل القلب، دائمًا ولا بدّ، فالتصديقُ والعلمُ والمعرفةُ (قول القلب)، إذا حصلَتْ عند المرء بأيّ قدر كان؛ فلا بد أن يعقبَها ما هو بحسبها مِن عملِ القلب؛ محبةِ لله، والتوكلِ عليه، والإنابةِ إليه، والخوفِ منه، والرجاءِ له، وإخلاصِ الدين له، والصبرِ على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضى به، وعنه، والموالاةِ فيه، والمعاداةِ فيه، والذلِّ له، والخضوعِ والإخباتِ إليه، والطمأنينةِ به!

ثم إيمان القلب؛ يلزم من حصوله - على وَفق ما سبقَ - تحركُ الجوارح بالإيمان قولًا وعملًا، بحسب ما في القلب، وهذا يقرِّر مسألة التلازم بين الظاهر والباطن، وهو بعض ما يُستفاد مِن قول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن القلب، كما في الصحيحين: «ألا وإنّ في الجسد مضغة، إذا صلَحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله»، وليس المقصود التنبيه على هذا ههنا !

لكنِ المقصودُ، التنبيه على قضيّتين:

الأولى: أن التلازم، ليس بين الباطنِ والظاهر حسْب، بلِ التلازمُ بين باطنٍ وباطنٍ أيضًا، فإنَّ قول القلب يلزم منه عملُ القلب بحسبه كما سبق، وثمَّ تلازمٌ بين ظاهرٍ وظاهرٍ، ليس هذا محلّ بيانه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه -:«ومِن المعلومِ أنّ وجودَ حبِّ الله، وخشيتِه، والرغبةِ إليه، وتألّهه، في القلبِ؛ فرعُ وجودِ الإقرارِ به، وهذا الثاني مستلزمٌ للأول»، اهـ.

الثانية: أنّ هذا هو معنى قولِ أهلِ العلمِ مِن أهل السنة والجماعة: إنّ إيمانَ القلب، هو أصل الإيمان وأسّه، ومنه تعلم كذلك أنه هو أصل المعروف، وأصل العبادة، وأصل الإسلام، وأصل الدين، على وَفق ما سبق تنبيهك عليه من تواطئ هذه الأسماء على معنًى واحد!



يقول شيخ الإسلام - رحمه الله - أيضًا: «وإنْ كان أصلُ الإيمانِ هو ما في القلب، أو ما في القلب واللسان؛ فلا بدَّ أن يكونَ في قلبِه التصديقُ بالله، والإسلامُ له، هذا قولُ قلبِه، وهذا عملُ قلبِه، وهو الإقرار بالله.

والعلمُ قبلَ العملِ، والإدراكُ قبلَ الحركةِ، والتصديقُ قبلَ الإسلامِ، والمعرفةُ قبلَ المحبةِ، وإن كانا يتلازمان؛ لكنَّ علمَ القلبِ موجِبٌ لعملِه ما لم يوجَد معارِضٌ راجحٌ، وعملُه؛ يستلزِم تصديقَه، إذ لا تكونُ حركةٌ إراديةٌ، ولا محبةٌ، إلا عن شعور.

لكن؛ قد تكونُ الحركةُ والمحبةُ فيها فساد إذا لم يكن الشعور والإدراك صحيحًا، قال عمر بن عبد العزيز: (مَن عبدَ اللهَ بغيرِ علمٍ كان ما يفسدُ أكثر مما يُصلح)!

فأما العملُ الصالحُ بالباطنِ والظاهر: فلا يكون إلا عن علمٍ، ولهذا أمرَ اللهُ، ورسولُه بعبادةِ الله، والإنابةِ إليه، وإخلاصِ الدين له، ونحوِ ذلك؛ فإنّ هذه الأسماءَ تنتظمُ العلمَ والعملَ جميعًا: علم القلبِ، وحاله، وإن دخلَ في ذلك قولُ اللسان، وعملُ الجوارح أيضًا، فإنّ وجودَ الفروعِ الصحيحةِ؛ مستلزمٌ لوجودِ الأصول» اهـ.

وإذا تقرّر أنّ القلب منه أصل الإيمان، وأن إيمانه هو مبتدَأ الإيمان، ومعروفه مبتدَأ المعروف، وأنّه لا يصحّ إيمانٌ، ولا عملٌ، ولا معروفٌ، ولا إسلامٌ، ولا عبادةٌ، إلا بإيمان القلب، وأن كلّ شيء من هذه المعاني ليس له أصل في القلب؛ فهو هدر، لاغٍ، لا عبرة به في الآخرة، وإن حصَلت التعمية والالتباس به - أو ببعضه - على أهل الدنيا، فيُكتَسَب به الاسم، وتُستحل به الفروج، والأموال، وما في الدنيا من فضلات، ويُنتزع به الجاه والرياسات، وما هو نحو ذلك، وخلف ذلك، مما الله وحده به أعلم!

بخلاف الآخرة، فيُعرض فيها ما في القلوب، وتفتن، ولا يؤذن بالنجاة والسلامة مِن الخذلان ؛ إلا لذي قلب سليم! إذا عُلمُ كلُّ ذلك؛ علمُ أهميّة الاشتغال بالقلب، والانشغال به! وأنه لا بد للمرء أن يتفقّدَ قلبَه، ويراعيَه، فما كان مِن إيمانٍ، ومعروفٍ، وعبادةٍ، مما يقعُ على القلب قولا أو عملا؛ ثبّتها، وأيّدها بأنواعِ القول، أدلةِ الحقّ، مِن المعرفة والتصديق والعلم، إذ سبق أنها مستلزمة لما هو بحسبها من المحبة والخضوع، والإنابة، والخوف والرجاء، وأعمال القلوب، التي هي «النية»، المشترطة لعمل الجوارح!

وما كان مما يعارض إيمان القلب مِن أنواع المعارِضات، مِن الجهل، أو التكذيب، قلّ أو كثر، شاع أو ندر؛ فواجب عليه أن يفتشَ عنه، فإنه يخفى غالبًا على المرء، ويعملَ على مقارعته بالعلم والمعرفة بالله، ودينه وشرعه، فإن اللذة لا تحصل إلا بذلك، بل لا يتم الإيمان إلا به، بل غالب أحوال الناس ترك قدر من ذلك يأثم به، ويرتكب به أكبر الكبائر!

وبه يعلم أيضًا أنه ليس في دين الإسلام أهم من تصحيح إيمان القلب! وأنّ:



«أعظمَ الواجباتِ؛ ايمانُ القلبِ، فما ناقَضه استلزَم الذمَّ، والعقابَ، لتركه هذا الواجب» [مجموع الفتاوي (10/ 735)].

وإذا كان ما سبق توضيحه، مما يتعلق بقول القلب وعمله مؤديًا إلى الاعتراف بأنّ «مدارَ اعتلالِ القلوبِ وأسقامِها على أصلين؛ فسادِ العلمِ، وفسادِ القصد» كما قال شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله؛ عُلم مِن مجموع ذلك كله؛ أنّ أهمّ ما ينبغي أن يوليه المسلم اهتمامه، هو تصحيح هذين الأصلين في القلب؛ العلمِ، والقصد.

وكنت دائمًا أعتقد أن رمضان الكريم، خير مواسم العام لإحياء هذا العلم، والتفتيش عن عيوب النفس، وخفايا مشاكل القلب، وأمراضه، وأنواع معارِضات الحقّ فيه، مِن رياء وسمعة، وكبر، وعجب، فإنّ مردة الشياطين مصفّدة، والرب تعالى مقبل على عباده بأنواع النفحات، معينٌ لهم على التوبة، مريد لغفران ذنوبهم عامة، دقيقها وجليلها، فلم يبق إلا إرادة العبد الكشف عن عيوب نفسه، وأمراض قلبه، والعمل بمقتضاه!

أما الاعتناء بالأبدان، وترك ما هو أصل ذلك ومستلزمه مما هو أهم وأولى، بإجماع المسلمين؛ فليس سبيل العالمين بحقائق الدين وأصوله، المريدين لرضا الله وقبوله.



كما أنّ العناية بأعمال الإيمان على البدن، دون أن يكون مبتدَأُ ذلك عنايةٌ بعلمِ القلبِ وقصدِه، وتصحيحُ قولِه، وعملِه؛ فرضُ محالٍ، على نظامِ ما سبقتِ الإشارةُ إليه مِن تلازمٍ بين الباطن والظاهر!

الله أسأل أن يوفقني وعموم المسلمين إلى تصحيح قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله، وأن يحفظ المسلمين من الكفر، والنفاق، والشقاق، والكبر، والعجب، والرياء، وسيئ الأخلاق!
والحمد لله رب العالمين.



ذو الرجل الترابية

محمود توفيق حسين

طريحٌ أنا على هذه الهضبة، مغمض العينين، يلعقني العراء الهائل على مهل، وتنخسني مناقير هزائم قديمةٍ وكثيرةٍ لا أذكرها، ويعمل تحتي دبيبٌ خبيثٌ وحنون، كأنما جسدي يعدُّ نفسه للتحلل، أو لعله.. بدأ بالفعل في التحلل.

رخوةٌ أعصابي تمامًا، فلا أعرف كيف أستجمعها حتى أعتدل وأفحص هذا البغيَ المرعب، وأنهر هذا الانهيار المريع. ربما أستطيع بكلِّ الجهد والعزيمة، نعم، عليَّ أن أفعل شيئًا الآن وليس بعد،عليَّ أن آخذ نفسًا عميقًا وأن أستجمع قواي وأدفع صدري للأمام فأعتدل، متخلصًا من هذا الكمون الجليل والمستفز،الذي يليق بمومياء راقدةٍ في تابوتٍ من الحجر السماقيّ، ولا يليق برجلٍ يحاول جهده ألَّا يموت.

ولكني متهيبٌ من الاعتدال؛ ليس لأنه سيجردني من هذا الجلال الذي كستني به الغيبوبة ولست أهلًا له، ولكن أخاف إن اعتدلتُ أن تستيقظ بي جراحٌ نائمةٌ كالدبابير، يُسكِتها عني رقادي البائسُ مثل جثة، وستهيج إن حاولتُ أن أقوم، فتظل تلسعني للأبد، معاقبةً إياي على أن حاولت ذات إفاقةٍ ألَّا أموت.

بل وخائفٌ أيضًا مما هو أدهَى:خائفٌ من أن أعتدل فيلتصق وجهي بالحقيقة التي أتكهَّن أنها هادئةٌ ومنسابة، على قدر ما هي قاتلة؛عندما أعتدل فيربكني الموت وهو يزحف فوقي ببطءٍ زحْفَ النمل، ولا أستطيع أن أنفضه عني، فأرى التحلل وقد بدأ برِجلي اليمنى، فصارت كتلةً من التراب ممدودةً بنفس شكلها، مثل عرق حطبٍ صرمته النار، إن امتدتْ إليه يدٌ وجدته حجمًا هشًّا من الرماد؛ حتى أني أتخيل يدي المذعورة وهي تتحسَّس الطرف الأيمن من سروالي،ثم تهصره، من عند الفخذ، ونزولًا إلى الركبة، ووصولًا إلى الكعب، فيخرُّ منه التراب خلف التراب!

وهذا (التنميل)الساري في رِجلي اليمنى الآن،يحدثني أنها صارت بالفعل ترابًا، أجهز عليها الموت كلها؛ وشيءٌ من الذاكرة يوافق هذا الهاجس المشؤوم؛ فمن بين الدخان المنبعث من كهفها المهجور، أرى كما لو كان شابٌ واهنٌ ممددًا في فراشه وقد بُترت رجله، وقبل أن يفجع بالفراغ المؤلم، يشعر أن رجله التي لم يعد لها وجودٌ تأكله.

أما عما حدث، فلا علم لي بما حدث، حاولت أن أرتِّب الذي كان مرةً أخرى، من ندمي، من الهراء، من الوساوس، من أذى السامرين، من مصمصة شفاه عجائز نجوَى حول ما يبدو أنه سريري، الممدد عليه ما يبدو أنه جسدي، لكني فشلت.

كل الماضي الآن ليس إلَّا عمودًا من الغبار عرَّاه الضوءُ على الدرجات، ونثارًا كريشٍ يتهاوَى للأبد في الفضاء عن معركةٍ بين طيورٍ خرافيةٍ جارحة، وطنينًا مبهمًا، من صفيرها الذاهب في الأثير.



الماضي مضغَ نفسَه بأنيابه وهو يتلذذ، مضغ ذاكرتي التي كنت أسمع قرشة غضاريفها بين فكَّيه، ثم انكبَّ ولعق على الدرجات دماءها الساخنة؛ وبعد أن أتمَّ وتجشَّأ وانصرف، لم يعد هناك شيءٌ قديمٌ عندي إلا الشتات من الشتات من الشتات؛ ولا أستطيع أن أمدَّ جسرًا من هذه الشظايا بين وجهين مبتسمين، أو بين أسفَيْن بالغين.

الآن، كأني أتذكَّر -أو لعلي أتخيَّل، لا ضير- أني رهينة، قطع طريقي خاطفي المضطرب في ليلةٍ خروبيَّة، وهو يصرخ بالتجنين، بالصرخات المتقطعة التي لا تُفهِم، كأبكم عصبيٍّ؛ ورغم ارتجاله إلَّا أنه استحوذ عليَّ هونًا في لحظة المباغتة.

كنت كمهرٍ بريٍّ حرٍّ وغافل، يقتحم الوديان والمخاضات ولا يدرى مصيره، وبغير أي نذر، كان هناك كبوةٌ واحدةٌ وجد نفسه على إثرها قد انكبَّ على وجهه، وسلخت الأعشاب الشوكية جلده وهو يتدحرج على جرفٍ حتى استقرَّ جسده منهزمًا تحت هذا الجرف الخبيث، ليفاجأ بنفسه وقد احتنكته يدان قاسيتان وغمت عينيه سريعًا؛ كأني شعرت بمثل هذا ذات اختطاف. وظللت متعرقًا غارقًا في الضوء الأسيف للقمر،ذلك الضوء الذي لم أعد أراه، وغارقًا في ذهول اللحظة الذليلة الجاثمة، تحيط بي قهقهاتٌ شامتةٌ كأنها لقردة، تتنادى بها من مكانٍ بعيد.وكنت لا أصدق أن هذه هي معيشة الأيام القادمة كلها، ككائنٍ مغلوبٍ واقعٍ تحت إمرة هذا الغامض الذي استزلني.وأخذ يدفعني قدَّامه مغمم العينين، من خرِبةٍ إلى أخرى، ومن وَحشةٍ إلى الثانية، ومن قائمٍ إلى حصيد، إلى أن طرحني على هذه الهضبة العارية.

كأني أتذكَّر: لقد لازمني هنا بوطأة حضوره الثقيل وقتًا لا أعرف مقداره، ومرَّت عليَّ فترةٌ لم أنتبه للسكون حولي،ولما افتقد تحينئذٍ همهمته وأنفاثه، وأصوات بَكَمه المرعبة، وأطيط نعليه الغليظين، ارتحت الغمامة وحدها وأنافي رقدتي ورأسي على الصخرة.وأصابني الهلع من كشف الغطاء، واندفعت في الاعتذار عن سقوط الغمامة رغمًا عني، فوجدتني أكلم نفسي؛ فهو هناك، يتضاءل في ذهابه بعيدًا. هذا الذي ساء وجهي ولم أرَ وجهه قطّ، كان قد صار كالجعران عند الأفق.

أتلفت حولي الآن، فأرى الأحوال على خير ما يرام، انتهى الكابوس إذن فلم أتمسَّك به؟! مكشوفةٌ هي الهضبة، وكل تلك السبل مهارب، وأي رجا من هذه الأرجاء فوْت. سأستأنف زمني الأول حرًّا وواثقًا؛ ليس عليَّ إلَّا أن أقوم بغير أن أنفض ثيابي،وأجسُّ رجلي سعيدًا بأنها لم تعد ترابًا كما كنت أتوهم، وأطلق ساقي للريح فارًّا إلى الله؛فلا يريد ربي من صاحب ذاكرةٍ معطوبةٍ غير الندم وحده.

هل أفعل؟ هل أعتدل؟ هيَّا.. لا، لا، أنا خائف، بل مرعوب، فهذا الإغراء بالهروب يبدو لي وكأنه استدراجٌ ماكر، وهذا السهو يغلب عليه عندي أنه مصطنع. لاشك أن هذا فخٌّ منصوبٌ لي، وأن هذا الذي يبدو كالجعران هناك، والذي لازالت ريحه النتنة هاهنا، قد يستدير في أي لحظةٍ ويعود بسرعة الشهب، ويجلب عليَّ ويستحوذ عليَّ مرة أخرى، حتى لو قطعتُ أميالًا من وراء أميال، وأن هناك حسابًا عسيرًا ينتظرني إن تركت موقعي الذي نبذني به؛ كأني أسمع في ضميري من صاحب الخطوات الحشَرية المتهالكة وعيدًا، بأنني سيؤتى بي ولو ذهبت في بطن أمي؛ لذا علي أن أقبع هاهنا حتى ولو مت مكاني وصرت ترابًا في رقدتي، ترابًا تمرُّ عليه يدُها الحانية.



أنا رهينةٌ لا وزن له، ورغم هذا تراقبني ألف عينٍ جهنمية، نثرَها المجنون بين الحصى ومضى. أنا هنا كعنكبوتٍ على جذع شجرةٍ ميتةٍ في العراء، إن يتحرك مزقته الريح، وإن مكث مات بهدوء، وصار بعضَ الغبار العالق فيما كانت خيوطه.

أحيانًا ما يهزني شيءٌ طيبٌ كي أعتدل، يفوح في صدري ريحانُه الأول، فيه تلك البشرى الخاشعة لماء الوضوء في الشتاء، كأني قد جرَّبت هذا البرد في صباي، وبه السكينة التي على صوت المسنين وهم يهمهمون بالاستغفار في خطاهم الوئيدة لصلاة الفجر، كأني تنصَّت على هذا وأنا ماضٍ تحت حوائط المدينة النائمة، وفيه أجمل ما فيه: حنان أمٍّ صبور، لا تملُّ رغم مرور الوقت من التربيت على جسد ابنها الذاهب في غيبوبةٍ طويلة، ومن فحصه كل ساعةٍ وقد جدَّد فيها الدعاءُ الأمل. أنا لي أمٌّ لا أذكرها مثلما أني لا أذكرني، لكن لا ريب أن لي أمًّا أشمُّ الآن حنانها وشجنها الأخضر، ورائحة ثوبها القديم الذي بلله الدمع، وخاط كمَّه الأسف.

لازلت ممددًا على الهضبة العارية، تحت سماءٍ شهباء دانية، والصخرة تحت رأسي، وعيني المرهقة سئمتْ متابعة هذا المجرم المهووس وقد صار ذرةً من غبارٍ تتهادَى في الأفق. وتهب الريح حولي من لا مكان، وتلفُّ حول نفسها حيرَى وتمضي. الريح المغادرة المهزومة، والعَبوس، تضرب الهضبة ضرباتٍ فيها يأسٌ واحتضار، وأنا أتهجّى-والهواء يندفع في صدري- هذا الحضور المضطرب الخائف والمخيف في قلب الريح: إنها الريح المندحرة تبدو وكأنها تلملم على عجلٍ حشودًا من الأرواح الهائمة، بصوت عزيفٍ مثل نفض الثياب الصحراوية الواسعة، كأن العشرات من الأشباح المتفرقة المرورة، قامت من هنا ومن هناك، لتمضي كئيبةً في السهوب الخاوية، في سبيلها للخرائب البعيدة، فأخذتْ تنفض أثوابها من التراب.



لا أريد أن أمني نفسي، لكن على ما يبدو أن الكابوس قد انتهى، إلَّا بجبلٍ مني، سقط الصنم على قفاه، وسمعت هدَّته، ولم يبقَ منه غير سجودي.نعم، أستشعرُ انهيارَ الحرس الذين يحيطون بي ليلًا ونهارًا، تاركين لي الفراغ ومصيري، لأستوعب الأمر وحدي، أو لا أستوعبه أبدًا؛ فأهربُ، أو أموتُ كما يموت العنكبوت على شجرةٍ ميتة، أموت بهدوء.

أذكُر الآن شيئًا، حقيقةً ليس خيالًا، نعم: وأنا أنسحب في الغيبوبة، مغمضَ العينين، وممددًا أمامه، كنت أظنني وإياه تبادلنا نوعًا من الألفة الخشنة فرضها علينا ترحالنا معا، وأنه لم يعد هناك داعٍ لأن يحمل عليَّ كليلة الاختطاف الأولى؛ ودًّا للأيام الخالية وامتثالي، استمعت إليه وهو يزفر ويتأفف أثناء ربطه سيور حذائه، ويصرَّ صرَّته، مستعدًا للرحيل وحده، كان آخر ما فعله هو أن رفس فخذي بمقدمة حذائه الحديدية المدببة فأصابها التصلب، وساعدتني الغيبوبة على أن لا أشعر بالكثير من الألم؛ وأخذ يصيح بصياحه المختنق المخيف تجاهي، ووقر في قلبي أنه يتوعدني بالرجوع، ويتمنى أن يجدني ميتًا؛ ومما يحزنني على ما آل إليه حالي، هو أنني شعرت لحظتها ببرد الخيانة.

أنا الآن لست إلَّا مهرًا صغيرًا ينزف ببطءٍ من جرحٍ في فخذه وهو متحسرٌ على حاله، ويلعق في ذهول الموت رقبة أمه لعق الوداع، وأمه قليلة الحيلة تلعق أيضًا جرحه والعينان دامعتان.إنها تتركني، تنزل في البحيرة القريبة، تعود مسرعة، تنتفض أمامي فتنثر الماء على جسدي، تذهب ثانيةً وتعود، وتذهب أخرى، تعود، وهأنذا أشعر بشيء من الانتعاش والرضا، وأتلهَّى عن الموت بالنظر إلى هلالٍ خفيفٍ ظهر في السماء؛ ومن العجيب أنني الآن في حضور الموت أتبسم له، فتبتسم أمي لي وله؛ ما هذا يا أمي؟!

أمي التي لا تعرف ما عليها أن تفعل من أجلي، وضعت حافرها على حافري برفق، ثم أخذت تلعب فيه وتحكُّه بلطف، لا، لا، لا أتحمَّل هذا، حتى ضحكتُ وضحكتْ.

كان هلال رمضان قد بدا في السماء ليلتها، وانتشر في ديار المسلمين خبر حلول الشهر الكريم، الذي يستبشر به من عرف قدره، ويضل عنه من حرم نفسه. وعلق الشياطين بأصفادهم واندحروا وهم يؤكدون لأوليائهم على عودةٍ قريبة،ونزلتْ سكينةٌ من الرحمن الرحيم على قلوب العبّاد والمضطرين والضارعين

كان هلال رمضان قد بدا ليلتها عندما كانت امرأةٌ طيبةٌ تلحُّ في الدعاء عند سرير ابنها الذي راح في غيبوبة، ابنها الذي سقط ضحية إدمان حقن (الماكس) حتى لم يعد ينتفض في ذراعيه عرق يحقن نفسه فيه، فحقن نفسه حقنةً في الفخذ تصلبت معها رجله اليمنى، وسقط في غيبوبةٍ لا يفيق منها، ورجَّح الطبيب أن رجله ستُبتر، بل ومهَّد لها احتمال موته.وأحس الشاب فيما يحسُّ الذاهب في غيبوبةٍ أن رجله قد تعرضت للبتر، وتذكَّر كيف أن الشيطان رفسه في فخذه وهو يستعد للهروب قبيل رمضان، وكيف وقر في قلبه أنه يتمنى له الموت على المعصية.

كانت الأم التي بلل دمعها وجه ابنها الشاب، الذي رأى نفسه في تجليات غيبوبته وكأنه مهرٌ جريحٌ تنثر أمه الماء عليه، قد جلبت الماء في إبريق، وأخذت توضئ ابنها الغائب في سريره، حينما بشرتها جارتها بالنداء عبر النافذة بظهور الهلال، ففتحت النافذة ونظرت إليه وبكت مبتسمة، في تلك اللحظات مال ابنها المغيَّب بوجهه ناحية النافذة ميلًا خفيفًا وهو مغمض العينين، ثم ابتسم ابتسامةً رقيقة، تليق بمهرٍ يتلهّى عن الموت. فكادت الأم تطير من الفرحة، واعتصرت ذراعيه بكفيها، وهي تناديه: قمْ.. قمْ .. قمْ .. من أجل أمك قمْ.

وأخذت تجلس على سريره وتقوم وتلفُّ حول نفسها وهي تدعو: يارب .. يارب .. يارب.ولجأت بغير وعيٍ لنفس الطريقة التي كانت توقظه بها في صباه للذهاب للمدرسة، ولو شاهدها الطبيب لتأسف على ذهاب عقلها:أخذت تدغدغه بأصابعها في باطن قدمه اليمنى وهي تنظر في وجهه،فيما كان يتجلَّى له في غيبوبته أنها فرسٌ وضعتْ حافرها على حافر مُهرها الجريح تلعب فيه؛ وفي عالم الشهادة، لازالت تدغدغ باطن قدمه وهي تنادي: يارب .. يارب. حتى هزَّ قدمه قليلًا هاربًا من الدغدغة، فاستبشرت، ولم تعد تعرف إن كانت تبكي أم تضحك، حتى ضحك أخيرًا، وضحكتْ هي ضحكًا مبللًا بالبكاء.

وفرَّ من يومها في الرحمات المنزلة إلى ربه فرار التائبين، وما وجده الشيطان بعد الشهر إلَّا ميْتًا قد أحياه الله ونضَّر وجهه.



لن تسرقوا منا رمضان

محمد علي يوسف

ومن صام أو صلى يُعلم حاله ** ففي النار يُلقوه على كل حالة
ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم ** يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله ** ويجعله في السجن في سوء حالة
وفي رمضان يفسدون صيامنا ** بأكل وشرب مرة بعد مرة

كانت هذه بعض أبيات من رسالة أرسلها بعض الموريسكيين، يستنجدون فيها بالسلطان العثماني بايزيد الثاني من هول ما يجدون في الأندلس، بعد سقوطها في يد القشتاليين.

والموريسكيون لمن لا يعرفهم هم أولئك الأندلسيون الذين بقوا في الأندلس، بعد سقوط دولة الإسلام سنة 1492 م. ومعنى كلمة الموريسكيين هو: العرب المتنصّرون.أو بمعنى أدق: الذين أجبرتهم إسبانيا النصرانية على التنصّر بالإكراه، ومن رفض التنصّر كان يقتل هو وأهله، أو يذوق الويلات والفظائع، حتى يتمنى الموت في أقبية الكنائس على يد زبانية محاكم التفتيش الوحشية.
لذا فقد اضطر هؤلاء الموريسكيون لإعلان النصرانية تظاهرًا فقط، وبقوا زهاء قرنين من الزمان مسلمين يكتمون إسلامهم، إلى أن اندثر الإسلام في أجيالهم المتأخرة بعد ذلك، بفعل القمع الرهيب الذي كان يخفت من صوت الحق في تلك الربوع رويدًا رويدًا.

ورغم أن إسبانيا كانت تحظر عليهم التفاهم باللغة العربية، وإحياء أي تقاليد إسلامية أو شعائر تعبدية، إلا أنهم كانوا يتمتعون بقدرة عجيبة على الاحتفاظ بلغتهم فيما بينهم، وداخل بيوتهم وبين أولادهم، وكانوا يتحدثون القشتالية لغة إسبانيا في تلك الأزمان مع غيرهم من الإسبان النصارى حتى لا ينكشف أمرهم، وكان لكل شخص منهم اسمان، اسم عربي يتخاطبون به بينهم ولا يعرفه الإسبان، واسم قشتالي اسباني يعرفه به الإسبان .

ولكن الويل كل الويل لمن يثبت عليه ارتكاب المحظور والتكلم باللغة العربية، أو التلبس بالقيام بأي شعيرة من الشعائر الإسلامية؛ فقد كانت محاكم التفتيش حينئذ تذيقه الويلات؛ من سلخ وإحراق للناس أحياءً، وقطع أطرافهم أو اغتصاب نسائهم أمام أعينهم؛ في مشاهد غاية في الفظاعة، لا فرق فيها بين كبير أو صغير، أو عجوز أو شيخ.

العجيب أن هؤلاء الموريسكيين، ورغم حفاظهم على سرية معتقدهم الذي لم يكن يظهر إلا أثناء ثوراتهم المتعددة، أو من خلال رسائلهم للسلاطين المسلمين، أو تحقيقات محاكم التفتيش مع من كشف منهم =فإنهم كانوا يأتون إلى رمضان وتتعاظم في نفوسهم العزة الإسلامية، وتعلو هممهم لدرجة تجعلهم لا يستطيعون كتمان تعبدهم وتعظيم شعائر دينهم في هذا الشهر تحديدًا.

ولقد حاول المؤرخون الإسبان الذين عاصروا الموريسكيين بإسبانيا رسم صورة لحياتهم الدينية السرية، وقد خرج جُلهم بخلاصة مفادها:

أن صيام شهر رمضان واحترامه وتعظيم شعائره هو أكثر ما تشبّث به الموريسكيون، رغم مرور العقود على تنصيرهم.

يقول المؤرخ الإسباني بورونات إي باراتشينا (Boronat y Parrchina) محاولًا رسم صورة عن حياة الموريسكيين الدينية، كما كانوا يؤدونها خفية عن أعين الوشاة النصارى, وقد أورد عدة مظاهر أساسية في حياة المسلمين بينها الصيام؛ حيث ذكر عن شهر رمضان: "ومدته ثلاثون يومًا، لا يأكل المسلم خلال اليوم إلا في الليل عند بزوغ النجم، وفي كل ليلة يتسحر المسلم؛ فيأكل بقية ما خلفه في أكل الليل، يأكل قبل الفجر، ويغسل فمه، ويؤدي الصلاة، ويتطهر المسلم قبل بدء رمضان، يبدأ الصوم برؤية الهلال وينتهي برؤية الهلال. بعد ذلك ينتظر أحد عشر شهرًا، والشهر الثاني عشر يكون هو رمضان؛ بحيث إن رمضان يبدأ قبل رمضان السابق له بنحو عشرة أيام؛ إذ هكذا يكون حساب الأهلة. بعد أن ينتهي شهر رمضان ومدته ثلاثون يومًا يحتفل المسلمون بعيد الفطر".

واستخلصت الباحثة الإسبانية غارسيا مرثيدس أرينا من دراسة لمحاضر محاكم التفتيش الإسبانية أن: "العبادات الأكثر رسوخًا في حياة الموريسكيين، والتي يتردد ذكرها في كل محاضر التفتيش تقريبًا =هي صيام رمضان، والطهارة، والصلاة".

تقول الباحثة: "وبدون أدنى شك, صيام رمضان هو العبادة الدينية الأكثر تأصلًا في حياة المسيحي الجديد، وفي الغالب هي أكثر عبادة يحافظ عليها الجميع، ويمكن القول بأنه آخر مظهر إسلامي من حيث التلاشي؛ فصيام رمضان كما تصفه المحاضر يرتكز أساسًا على الامتناع عن الطعام والشراب، والمحافظة على ذلك من الفجر إلى الليل عندما تطلع النجوم خلال شهر رمضان بأكمله".

أما الباحث الإسباني الشهير خوليو كارو باروخا فقد ذكر نقلًا عن كتاب "سرفنتس والمورسكيون: "أنه في بداية القرن السابع عشر كان أهل مرسية وجيان ومن بقي في غرناطة يصومون رمضان". أي بعد أكثر من مائة عام على سقوط غرناطة حافظ الأندلسيون على صيام رمضان، وهذا إن كان يدلّ على شيء فإنما يدل على عظم مكانة هذا الشهر عندهم، رغم بطش النصارى بهم واستضعافهم إياهم.

وقد شكلت مراقبة هلال رمضان للأندلسيين مهمة محفوفة بالمخاطر، نظرًا لانتشار أعين الوشاة الذين يترصدون الحركة الكبيرة والصغيرة التي قد توحي بأن فاعلها مسلم؛ لكن شدة شوقهم لصيام رمضان كانت أكبر من خوفهم من النصارى؛ فقد ورد في العديد من الروايات التاريخية أنهم كانوا يصعدون إلى المرتفعات لرؤية الهلال؛ حرصًا على صيام رمضان في وقته الشرعي.

وقد عاش الأندلسيون في حالة خوف وحذر من الوشاة، وأخفوا عقيدتهم والتمسوا الخلوات والأماكن المنعزلة لأداء فرائضهم ومنها الصيام، وكان النصارى إذا حل رمضان يمتحنونهم لمعرفة ما إذا كانوا ممسكين أم لا، ورغم اعتذار الأندلسيين بأعذار مختلفة لتبرير عدم أكلهم؛ فإنهم كانوا يتابعون ويراقبون من طرف محاكم التفتيش، وهذا ما جعل عدد المورسكيين المدانين في شهر رمضان أكثر بمراحل من الشهور الأخرى.



ولتفادي المراقبة النصرانية عمل الموريسكيون الأندلسيون على احتراف مهن تُبعدهم عن أعين الوشاة، حتى يتمكنوا من أداء شعائرهم في اطمئنان نسبي، فكانوا يشتغلون بمهنة نقل البضائع؛ حيث كانوا يقضون رمضان في قرى غير قراهم، أو في طريقهم إلى مدينة أخرى، وقد شكّل لهم هذا فرصة لدعوة الأندلسيين إلى الإسلام، وتعليمهم أمور دينهم؛ فلم يكتفوا فقط في ذلك الشهر بالتعبد، وإنما علت هممهم لدرجة أن حرصوا على الدعوة إلى الله، والمساعدة في هداية الخلق إليه، وفي هذه الظروف العصيبة، والاستضعاف الرهيب.

ولولا خشية الإطالة لأوردت من محاضر محاكم التفتيش بعض النماذج لقضايا، حوكم أصحابها وعُذبوا؛ لأنهم حرصوا على إظهار الشعيرة في رمضان، والدعوة إليها، ودلالة غيرهم على سبيلها.

تذكرت تلك الأحداث التاريخية ووثائقها وأنا أتابع وأشارك قدر وُسعي في تلك الحملة الرائعة، التي أطلقها أخي وصديقي الموفق د.حسام أبو البخاري، والتي أطلق عليها هذا الاسم المعبر الذي استأذنته أن يكون عنوانًا لمقالي هذا: "لن تسرقوا منا رمضان"

تذكرت حال الموريسكيين وأنا أتأمل هذا العنوان المعبر، ثم سألت نفسي:
ومن يسرق منا رمضان؟!
هل هم القشتاليون السفاحون؟!
هل هم مجموعة الساديين المجرمين، الذين كانت متعتهم في الحياة أن يمزقوا أجساد المؤمنين، ويقطعوا أوصال الصائمين القائمين؟!
هل قطاع الطرق إلى الله هذه الأيام يحملون سيوفًا ورماحًا، يضعونها على رقاب المسلمين كما كان الحال مع المورسكيين الذين ذكرت طرفًا من سيرتهم؟!
الجواب: لا.

إن قطاع الطرق وسارقي رمضان هذه الأيام لا يحملون سيفًا؛ ولا يستعملون آلة تعذيب في محكمة تفتيش، ومع ذلك تجد كثيرًا من المسلمين يسلمونهم رمضان، بدون تهديد أو وعيد!

تجد كثيرًا من المسلمين رغم سَعة العيش، وسهولة العبادة ويسر إظهار الشعيرة =أقل تمسكًا من أولئك المستضعفين المساكين، الذين قدروا رمضان بشكل أفضل بكثير من العديد من شباب المسلمين اليوم، ولم يترخّصوا رغم إكراههم وجواز ذلك لهم.

لكن المشكلة هذه الأيام مزدوجة، لا ينبغي أن يتحمل مسؤوليتها سارقو رمضان وحدهم، رغم عظم جُرمهم، ورغم عدم تمكن العقل من إيجاد أي عذر لهم يجعلهم يكثفون هجمتهم في هذا الشهر بالذات.
نعم، المشكلة مزدوجة يتحمل جزءًا كبيرًا منها مَن سمح لهم بسرقته، ولم يؤمّن على رأس ماله،
يتحمل مسؤوليتها من لم يتفكر لحظة لماذا يفعل سارقو رمضان ذلك؟!
لماذا يُعلمنون رمضان؟!
و"علمنة رمضان" هي الاصطلاح الذي أراه مناسبًا لوصف تلك المهزلة؛ بل الجريمة التي تتفاقم كل عام!

لماذا لم نتفكر بجدية في سر هذا السعار الفني والإعلامي في رمضان؟!
لماذا يغرسون تلك المفاهيم الخفية، التي تغيّر من طبيعة رمضان في الوجدان المسلم؟!
لماذا يتحول رمضان إلى شهر مسلسلات، وبرامج مسابقات، وتفاهات، وفوازير، وسهرات؟!
ما علاقة رمضان بالدورات الرياضية، أو بالخيام الترفيهية؟!
مَن غرس تلك المفاهيم في عقول المسلمين، وربطها برمضان؟
وهل من فعلوا ذلك يريدون فقط "تسلية" صيامك؟!
أم أنهم في الحقيقة يريدون تضييع صيامك وقيامك؟!

يريدون تضييع القيمة الأكبر لرمضان، وهي التغيير للأفضل، للأتقى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: 183]

هذه هي الغاية، وذلك هو المقصد الرباني، وفي مقابله المراد الشيطان الشهواني:
﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 27]

هدفهم ليس فقط أن تميل أو تزل، وغايتهم ليست مجرد الوقوع في أمر يحتمل خلافًا، هدفهم الذي أخبرك به الله -ومن أصدق من الله حديثًا- هو أن تميل﴿ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾.

دعْهم ينكرون كما يشاءون، ودعهم يتجملون، ويكذبون، ويدلّسون، ويزعمون أنهم وسطيون، مبدعون، وعلى مصلحتك ومُتعتك حريصون!

لكن مهما قالوا، ومهما ادعوا؛ فإن القول الفصل قول ربك:﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾.

هذا هو الاقتران، وتلك هي المزاوجة التي لا تنفصل عند أولئك المفسدين: اتباع شهوات، ورغبة في إمالة الخلق، ليس مجرد ميل؛ بل ﴿ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾.

البعض ينكر بكل حماس وجود طائفة تريد للأمة أن تتبع الشهوات، وأن تميل هذا الميل العظيم، وأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ويُسفّهون بكل قسوة ممن يحذر الخلق من تلك الطائفة، وكأنه يدّعي شيئًا أسطوريًّا مستحيلًا؛ كالغول والعنقاء والخل الوفي!



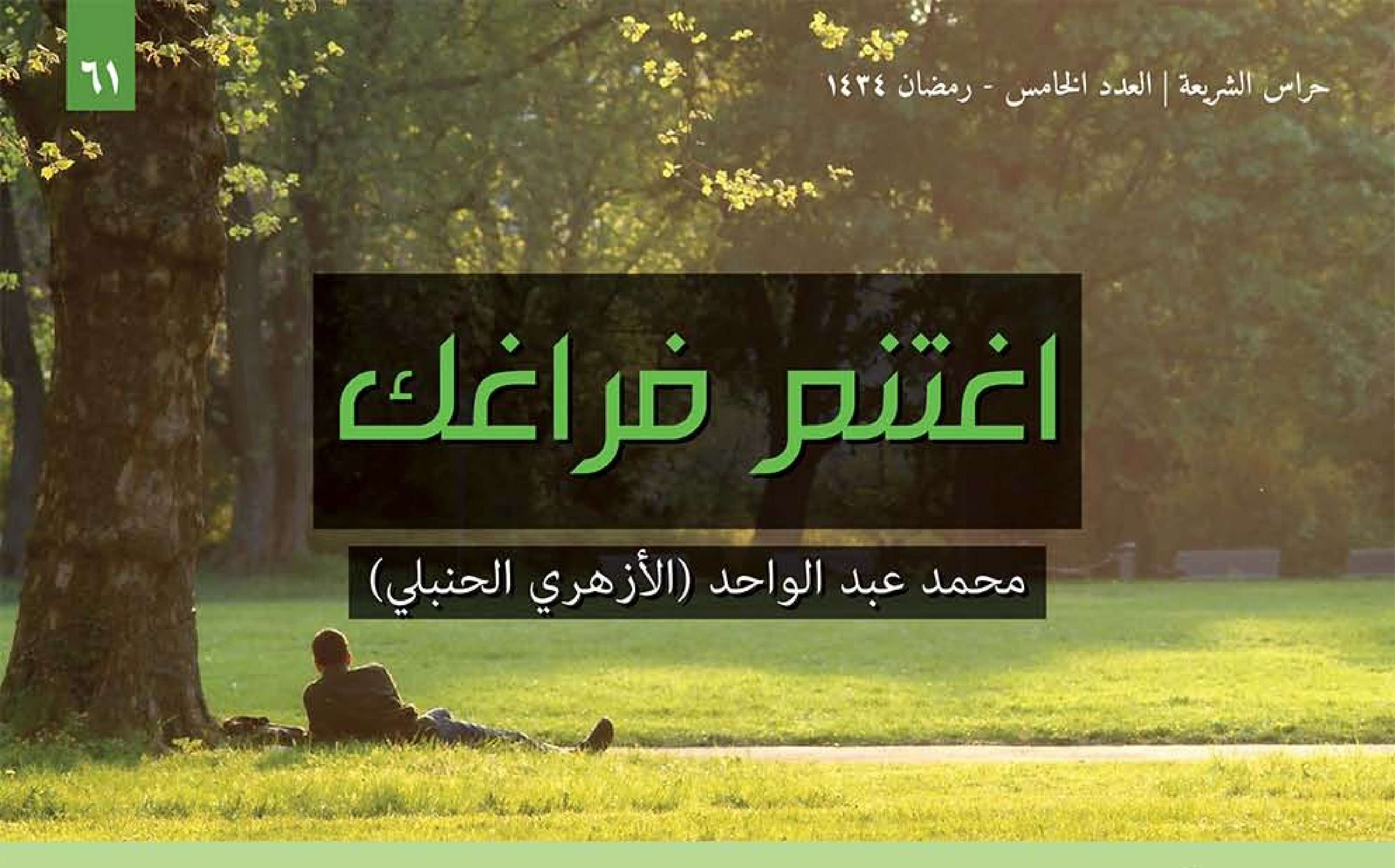
بينما لو تدبروا كتاب ربهم، لوجدوا هذا البيان القطعي في الآية السابقة عن تلك الطائفة المضلة، التي تريد للمؤمنين الميل معها، وتسعى بقوة لتمرغهم في أوحال الفساد إلى جوارها. وهؤلاء هم سارقو رمضان، وتلك هي حقيقتهم جلية ظاهرة؛ فلماذا نتغافل عنها؟ لماذا نسمح لهم أو لغيرهم بسرقته؟

لماذا لا ندخل رمضان هذا العام بنفسية الموركسيين، ونواجه سيوف شهواتهم، ورماح مغرياتهم، وخناجر فتنهم، بنفسية مجاهدة صلبة؟

لا نحتاج أن نفعل كما فعل المورسكيون؛ فنخرج إلى البراري والأصقاع فارين بديننا من محاكم التفتيش، أو أن نستخفي بشعائرنا خوفًا من عذاب جلاد، وبطش متجبر، ولكن مهمتنا بلا شك أهون؛ فقط نحتاج إلى إرادة قوية، وعزيمة، ونية، وتعظيم، وهوية.

دعونا هذا العام ندلف إلى رمضان بتلك العزيمة والنية، وبهذا التعظيم لشعائر الله، وإظهار الهوية، ونرددها في كل مكان، في بيوتنا، وأعمالنا، ومساجدنا، وبين أهلنا، وذوينا، وأصحابنا، وعلى جدران شوارعنا، وعلى جوارحنا، وفي عقولنا، وبقلوبنا، وعلى ألسنتنا. دعونا نصدع بها قوية، ونحطم بها جُدُر باطلهم، وأسوار شهواتهم؛ صائحين:





اغتنم فراغك

محمد عبد الواحد (الأزهري الحنبلي)

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعدُ:

فإن الإجازة الصيفية ربيعُ طالب العلم والمثقف، يأرِز فيها إلى مكتبته لينهل مما حوتْه، ويضع لنفسه خطة محكمة ينجز فيها ما لم يكن يمكنه إنجازه في غمار مشاغل العام الدراسي، عبر ورد محكم حازم، لا تفريط فيه ولا تشويش معه، وكل مُجدٍّ يعلم أنه يمكنه استغلال أشهر هذه الإجازة في قراءة عشرات الكتب، وإنهاء آلاف الصفحات من كتب التراث وكتابات المعاصرين، التي لا يسعه ألا يمر عليها.

وإن من الغَبن أن يأتي موسم كإجازة الصيف ثم يخرج منه الإنسان كما دخله من حيث العلم والثقافة، مضيعًا ما بقي من وقته بعد النوم، بين مواقع التواصل، وقنوات الفضاء، مكتفيًا بالطرح المجمل، أو مُلَح العلم والمعلومات المتناثرة، التي ليس لها رابط ولا خطام. مع أنه لو ألزم نفسه ببضع ساعات يوميًا من القراءة الجادة =فسيجد فرقًا كبيرًا جدًّا، في عقله، وفكره، وقدرته على استيعاب الواقع، وتحليله، والمشاركة في إصلاحه.

إن شبابنا -إلا من رحم الله- يعاني من جهل مدقع بدينه، وهويته، وفقر شديد في ثقافته، وقد أريد لهذا الجيل أن ينشأ سطحيًا مغيبًا عن ذلك كله، مغتربًا، منمطًا، لا عمق في فكره، عبر مناهج التعليم، وما تبثه وسائل الإعلام, وزاد الأمر ضغثًا على إبّالة ما يقوم به كثير من الحركيين -الزاعمين احتكار الإصلاح في حركتهم- من تزهيد في العلم والثقافة؛ إذ يرونهما مثالية وانعزالًا، وانشغالًا بما لا يجدي، مع أن من أكبر أزماتنا ضعف الثقافة، وقلة العلم، وسطحية الفكر، وضمور العقلية المرتبة.

وتجليات هذه الأزمة جلية جدًّا في التناول الشائع بيننا لنوازل الوقت وتعاملنا مع الأحداث، ومعلوم أن الفكر الصحيح العلمي المنضبط هو المحرك الحقيقي والمنضج للثمار النافعة في الواقع العملي، وإعداد العدة وإنفاق الأموال وتجييش الكفاءات وتنمية المهارات فيه =هو دأب الأمم المتحضرة الواعية.

ويكفي أن كثيرًا من الناس اليوم يقضون عُظم أيامهم ولياليهم في الاستماع للمحللين غير الواعين؛ فيشكلون وعيهم،ويضلونهم بغير علم، أو بقصد وهم لا يستطيعون ردًّا ولا تفنيدًا لما يستمعون إليه، وأن الأمة الآن في حاجة ماسة بل ضرورة إلى العلماء المؤصلين؛ ليقولوا كلمتهم في النوازل المتسارعة التي تعيشها أمتنا، مما إذا جاءت منها نازلة تبعتها أختها قبل أن تخلص إلى تصور الأولى تصورًا كاملًا، فضلًا عن إبداء الرأي فيها.

أضف إلى ذلك أن الحاجة ماسة كذلك في الجانب الفكري والمعرفي والإنساني؛ ليضطلع به أناس راسخو القدم في علم الشرع مستمسكون بهويتهم، ينطلقون من ثوابت الشرع المطهر؛ لفض الأمواج العاتية من الأفكار المنحرفة؛إلحادية، وعلمانية، وليبرالية، وحداثية، وما بعدها، بعيدًا عن زبد المفكرين الأجانب عن الشريعة واللغة والهوية، المتحللين عن الثوابت، وإن مسحت عليهم مسحة إسلامية، أو لقبوا بالمفكرين الإسلاميين.



كل ذلك يحتم على من لديه مُكنة وأهلية للتحصيل المعرفي أن يهب ليسد هذه الثغور، ويرفع عن نفسه الجهل وعن أمته، ويؤدي شيئًا من الفرض الكفائي الذي تحرج الأمة جميعًا إن لم تقم بالكفاية فيه، وهذا السبيل وإن كان لا يصلح فيه الانقطاع عنه والانشغال بغيره بل لابد من المواصلة فيه والدأب =إلا أن الإجازة الصيفية بما فيها من فراغ وتخفف من شغل الذهن بمناهج الدراسة يمكن أن يقفز فيها طالب العلم والمفكر قفزات واسعة الخطو نحو ما يتغياه؛ بحيث يعوض كثيرًا من النقص الحاصل في أشهر الدراسة المشغلة عن التحصيل الحر الحازم.

فإذا أضفت إلى ذلك التنبه إلى أن من فضل الله علينا وعلى الناس أن شهر رمضان المعظم سيكون في إجازة، بحيث لا عذر لأحد أن ينشغل فيهعن المصحف الشريف والعبادات المحضة متعللًا بالدراسة وضغط الامتحانات، كما كان يحصل في أعوام فائتة =فإنك تدرك أهمية اغتنام هذه الأوقات في الباقيات الصالحات، وملء هذا الفراغ بما ينفع العبد في معاشه ومعاده، وحاله ومآله.

هذا، وليس الكلام هنا خاصًّا بطالب العلم والمفكر فقط؛ بل لكل مسلم حظ من ذلك بحسبه؛ فيجدر بالمرء أن يضع لنفسه برنامجًا جادًّا متنوعًا لتحصيل القدر الأدنى من المعارف المهمة الدينية والفكرية؛ فيقرأ كتابًا شاملًا في العقيدة لتصحيح اعتقاده وتحصين نفسه من الانحراف فيه.

وآخر في الفقه؛ فيمر على أبوابه كلها، محصلًا تصورًا كاملًا ناضجًا عن الشريعة في جانبها العملي، وسيتعلم في خلال ذلك عشرات المسائل التي معرفتها فرض عين في حق كل مسلم مكلف لا يسعه الجهل بها، ويستفيد من ذلك أيضًا معرفة سَعة هذه الشريعة المباركة وشمولها لدقائق الحياة بجميع مجالاتها، وأنها الكفيلة بإصلاح دنيا الناس وآخرتهم، بعيدًا عن التصورات الجُملية، والكلام الذي لا يكفي طرحه مجملًا في تمكين الاعتقاد فيه في نفوس مستمعيه؛ حيث لا يعرفون من الفقه على سعته إلا بعض مسائل العبادات ومسائل متعلقة بالهدي الظاهر، وصورًا مشوهة ناقصة فيما يتعلق بفقه الجنايات والحدود.

ويقرأ كذلك كتابًا -ولو مختصرًا- في تفسير القرآن الكريم، ذلكم الكتاب الذي أنزله الله تعالى مباركًا ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[ص: 29] فكان حظ معظم القلة التي لم تهجره الهجران الكامل مجرد تلاوة حروفه، من غير فهم لمعانيه، ولا تدبر فيه.

ويقرأ كذلك ما يتيسر له من المختصرات والمتون الجامعة لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، مع شرح ولو مختصرًا لها، وهكذا في الآداب الشرعية والأخلاق، والسلوك والرقاق، والوعظ وعلم القلوب؛ فالضرورة لذلك فوق كل ضرورة.

ولا غنى به عن النظر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ومطالعة ما تيسر من تراجم أصحابه، والصالحين من بعدهم؛ ليعرف عظماء هذه الأمة ومفكريها، الذين أريد للعقل المسلم المعاصر أن يجهلهم ويقتدي بالساقطين والهابطين والتافهين والمخرفين، ويحتاج كذلك إلى قراءات فكرية وتاريخية وإنسانية تمس الحاجة إلى رفع الجهل بها عن المسلم المعاصر.

ثم إلى سباحة في كتب اللغة والأدب؛ لإزالة العُجمة عن ألسنتنا، والاغتياض فيها لتقوى أواصر الصلة بيننا وبين تراثنا.

والمناهج فيما ذكرتُ كثيرة متعددة، وما على المرء إلا سؤال أهل المعرفة والثقة؛ ليرشدوه إلى الكتب التي تناسبه في هذا، ثم البداءة فيها مباشرة، من غير تطويل في السؤال، والبحث عن المناهج ولا تنقل بينها؛ فكم ضيع ذلك على الناس من سنوات، ثم لم يبرحوا أماكنهم التي ألفوا البقاء فيها.

وبعد: فهذه بصائر في اغتنام هذه الأوقات، التي هي رأس مال المرء في دنياه وآخرته، والتوفيق بيد الله وحده.